نصف القمر المظلم

قصص قصيرة

عباس خلف

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق

٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الاشراف العام:

اللجنة العليا لموسوعة توثيق ارهاب القاعدة وداعش في العراق

مركز بيِّنَة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

( )

البريد الالكتروني :

WWW.BAINA.COM

العراق:كربلاء المقدسة

الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ- ٢٠٢٤ م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني:

م. زهير الجبوري

نصف القمر المُظلم

قصص قصيرة

عباس خلف علي

أبو مدين الصحراوي

كان يوماً من أيام القيظ شديد الحر عندما عدتُ من زيارة أحد الأقارب وهو -علوان الكبيسي- الذي يسكن مدينة - كبيس- على موضوع تجاري محض، ولديه مبلغ بحوزتي لغرض تسليمه له، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وجدت الرجل قد سافر إلى الأردن لمراجعة الأطباء، سلمت المبلغ لعائلته وسلكت الطريق البري متجها إلى مدينة(طريبيل)، حيث لديَّ محلات متخصصة لتجارة المواد الاحتياطية والاطارات على مختلف أحجامها - محلات وليد الكبيسي - وهي معروفة في المنطقة فيها عمالة من مختلف الأقطار العربية إضافة إلى أبناء من منطقة الرطبة، يتم البيع فيها بالجملة والمفرد .

أثناء العودة عرجت باتجاه الطريق السياحي خارج الرطبة لمراقبة وصول الشحنة وهي تحتوي على مجموعة من قطع غيار السيارات، والمرسلة من أوربا لمحلات (وليد) وعادة مايكون الاستلام عن طريق مركز تسليم البضائع فكانت المسافة التي تفصل الرطبة عن

المركز في صحراء طريبيل تبعد حوالي ١٦٠ كم وأنا أقطع هذه المسافة التي أغلبها (ترابي).لقد حددت السيارات طبيعة هذا الشارع وجعلته صلبا معبدا للسير يضاهي طرق الاسفلت، في هذه الصحراء القاحلة وأنا أقود سيارتي بين دفتي هذا الشارع الترابي وإذا بي أجد نفسي محاطاً بمجموعة من الدواعش بلباسهم القندهاري وهم ينزلوني من السيارة ويقومون على تفتيشها ثم يعصبون عيني، بعد ذلك إقتادوني في سيارتهم التي لمحتها قبل أن يمسكوني وهي من نوع -بيك اب نيسان- وبعد أن وصلت إلى مكان أشبه بالنفق فتحوا عيني، فكانت لحظة لايمكن نسيانها، ما شاهدته هي مجموعة من الوجوه العابسة يتطاير من عيونها الشرر ومن دون مقدمات كنت أواجه مجموعة اتهامات منها أنك مختار الرطبة، تقوم بتهريب السيارات، ولديك أعوان لمراقبة تحركات (التنظيم) وهناك اعترافات تثبت تورطك بهذه المهمة لصالح الدولة، بعد ذلك أدخلوني في زنزانة صغيرة وقالوا لي: (إنتظر حكم القاضي بأمرك) وأنا غير مصدق ما يجري من حولي،خلعوا ملابسي وجعلوني أرتدي البدلة البرتقالية وهنا عرفت مصيري وقلت:(إنا لله وإنا إليه راجعون) لا يمكن النجاة من هذه القبضة الغادرة أبدًا.

أحد سجاني داعش كان كثير السؤال عني، فهو مُنَقَّبْ ولا أرى وجهه، فكان يعرف عدد من الرجال الذين ألتقي بهم بالأسماء، وكان يزداد يقيني من هذه المعرفة بأن سلاحهم التجسسي قوي ويعرف عنا الكثير ولكن أنا لم أشتغل بالتهريب كما يدعون وليس لي أعوان لمراقبة داعش؛ الاتهام الصحيح الوحيد هو إني مختار حقا، هذه الصفة وإن كان يعرفها القاصي والداني، فالمختار في كل الأماكن نقطة دلالة معروفة لا تحتاج إلى تجسس أو ذكاء، الشيء الذي جلب انتباهي هو هذا الرجل المنقب الذي يعرف علاقاتي وقد ذكر لي أشياء هي حقيقية لا يمكن أن يعرفها إنسان بعيد عني مما جعلني عند مراجعة هذه المعلومات في ذهني أن أغير حساباتي بالموضوع وقلت إنهم متطلعين على شخصيات المدينة ويعرفون تحركاتهم، انبرى صوت الرجل المُنَقَّب قائلا: أن قضيتك تصل لحد القتل؛ فكل التهم المنسوبة لك خطرة إذ أن كل فقرة منها تستحق الإعدام وجميعها متوقفة على (الأمير) أن كان يصادق على قرار القاضي في حالة ثبوت الإدانة أو لديه رأي آخر الأمير كلامه فوق الكل وأعتقد انك تعرفه فهو من أهل مدينة الرطبة يكنى (أبو مدين الصحراوي)، قلت له: ما أسمه الحقيقي؟ قال بلغة مبطنة: عندما يقابلك سوف تعرف ذلك.

الأنتظارُ، والأكل كلها لم تأتِ سهلة فالجلد مستمر وعمري الذي تجاوز السبيعين لا يتحمل مثل هذه القساوة، طبعا بين الفينة والأخرى أسمع الكلمات البذيئة التي يصاحبها النغز بالعصى أثناء الأكل (نصف رغيف يابس معجون بالدبس) ماعدا هذا (المنقب) الذي كان متعاطفا معي ولكن لا يظهر ذلك أمام الجلاوزة الآخرين. بقيت أنتظر في هذا الدهليز مايقارب أسبوع وصار حالي يرثى له حيث أن علاج السكر والضغط لم أستخدمهما هذه الفترة لعدم السماح بجلبهما من السيارة التي لا أعرف مصيرها الآن،وفي أحد الليالي جاء الأمير (أبو مدين) سمعته يطلب إحضار سيارتي الخاصة وملابسي والسماح لي بالخروج لكوني مشمول بعفو الوالي (أبو بكر البغدادي) شريطة الإلتزام بالتعليمات، أنا لم أصدق نفسي أن كنت أنا المقصود أو غيري .جاء الرجل المنقب بالحال ونزع عنه النقاب عرفته- جعفر علاوي -من أهالي مدينة الحلة، وهو كان يعمل لدينا حارسا ردحًا من الزمن في - محلات وليد الكبيسي - لم أقل له ما الذي جعلك أن تكون في التنظيم؟ كنت أخشى على نفسي من هذه الأشياء أن تذكر في غير محلها ولكنه هو فهم ما كان يدور في ذهني من نظراتي الحائرة. وقعت على التعهد وسلمتهم البدلة البرتقالية وخرجت من

الدهليز ولكن معصب العينين ولم يسمحوا لي برؤية المنطقة حيث قاد سيارتي أحد الدواعش إلى ذات المكان الذي خطفوني منه.

وبعد أن وصلنا المكان الذي يسموه – الهدف – فتح السائق عني العصاب وهو يتأفف، وقال لي بتحذير شديد : أياك أن تذكر شيئا عما جرى لك فالعفو عند الوالي لا يتكرر.

بعد ذلك تركوني وحيدا في المكان القاحل وكان النهار يوشك أن يسدل أستاره وبدأ الظلام يحِلُّ شيئا فشيئا وأنا صاغر لحركة البيك آب التي أستقلوها حيث كانت ترافقنا خلال المسير وغاروا بها نحو أفق يدركون فيه مكان الاختباء.

الكدمات وآثار الجلد لم (تمهلني) أن أشعر بالراحة، تفكيري في هذه اللحظة مشوش تماما، دوار يأخذني ويلتف حول رأسي، قلت لنفسي: من غير الممكن أن أسيطر على قيادة السيارة، كل جسمي وتفكري واقع تحت تأثير ماحصل لي، ولكن من غير المعقول أبقى فريسة الذعر؛ قبل فوات الأوان. عدتُ من حيث أتيت وأنا مسكون بالحذر والترقب والتحسب .

الأيام تمضي و(طريبيل) صارت موطن لبطش زمر الدواعش التي عاثت في الأرض فسادا وقتلا وتدميرا، والأهالي غلقوا على أنفسهم

الأبواب من شر المواجهة، الرمي العشوائي في كل وقت لإرهاب مضاجع البيوت الآمنة، فخروجي للعمل صار نادرًا أو أنه صار حسب الحاجة الضرورية جدا. البضاعة أخذت تتكدس والعمل لا يكفي أجرة عامل واحد، وفي هذه الأثناء دخل -جعفر علاوي- الرجل المُنَقَّب. وقال لي: لقد قتلوا صديق عمرك علوان الكبيسي وعلقوا جثته أمام محله في كبيسه بتهمة الكسب غير المشروع ومحتمل أن يأتوا اليك في أي لحظة، وقبل أن يكمل حديثه معي دخل المكنّى (أبو مدين) وحين نزع النقاب عرفته حق المعرفة رجل منبوذ في -الرطبة- كلها تعرف من هو السفاح -ربيع الخنجر- نزيل السجون والمعتقلات مرتكب أعتى القضايا إجراما قضى جلَّ عمره يتنقل من سجن إلى آخر، هو هذا الأمير (أبو مدين)، قال لجعفر بنبرة عالية: أخرج؟ نظرت إلى (جعفر) وجدته متسمرًا في مكانه بلا حراك والدم يغلي في عروقه، خرج جعفر امتثالا لطلب الأمير، التفت لي (ربيع) قائلاً: عليك ياسيد ربيع أن توقع هذه الاستمارة. عندما تطلعت فيها وجدتها عقد بيني وبينه مُلزم بأن يكون شريكي في هذه المحلات، مقابل توفيره الأمان لي، مجنون إذا لم أوافق على هذا العقد؛ أي أنه رجل بلا قلب ولا يخشى الله فهل مثل هذا الداعشي أن يخشاني، وبعد أيام تربص له (جعفر) في السوق وقتله

بين مجموعة من الحريم كان قد جمعهن من مناطق متفرقة لغرض بيعهن بأثمان بخسة، صحيح قد صُلب (جعفر) بنفس المكان ولكن صدى ذكراه ظلَّ يتردد على كل لسان .

العمود رقم ٨

كانت وكالة – أعماق– الوحيدة التي تضخم سطوة الدواعش على المدينة عبر وسائل الأنترنيت المتنوعة، وهي كانت الوكالة الوحيدة التي يرتعب منها المواطن ويحرص في الوقت نفسه على الاستماع لها لتلافي الأخطاء في الشارع خوفا من ارتكابها من دون قصد. وبعد أشهر من دخول عناصر داعش إلى مدينة الموصل، أصدرت تعليمات تدعو فيها الشباب إلى الأنخراط في صفوفهم؛ الأمر الذي أحدث فوضى بين الناس وارباك واضح في تنفيذ هذا الأمر، فالغرض كان تدريبهم على كيفية الإنتقام، لا على تدريب السلاح فحسب.

ابني (أحمد شهاب) بعد أن أكمل دراسته الابتدائية تعلّم صناعة الكبة الحلبية. وبرع في تشكيل محتوياتها لكي تكون أطيب ذائقة وأزكى نكهة للزبائن، هو يدرك مدى حاجتنا لمعيل بعد مرض أمه التي تعاني من التهاب المفاصل المزمن وأنا منذ أن أجريت عملية القلب المفتوح قبل سنوات مازلت أعاني بعض الأعراض الجانبية التي تحتاج إلى

مراجعة طبية. (أحمد)بعد إكماله الدراسة الابتدائية فضّل أن يدرس في الدوام المسائي، وعلى الرغم من كلِّ ما نعانيه لكنني كنت أرفض هذا الرأي وحاولت أن أثنيه غير إنَّه كان يرى في راتبي التقاعدي عبارة عن فتاتٍ لا تسد أجرة الطبيب والعلاج، فأصرَّ على رأيه في الدراسة مساءً والعمل في الصباح .. واتفق مع صديق له اسمه (نزار) على شراء عربة قديمة قام بصبغها وتبديل إطاراتها ووضع في حوضها مكانا خاصّا – لقدر الكبة – وأخذ مع صاحبه يذهبان كل صباح الى حيث يقف العمال الذين ينتظرون العمل (المسطر) في منطقة الغابات. وبعد أيام كتب بالخط البارز على واجهة العربة. هذا من فضل ربي. رغم أن بعض المارّة كان يتندر ويسخر مما كتبه فيقول المهم: من عافاك أغناك، وهذا يعود لفضل رب العالمين. لا يلتفت لشيء سوى إلى شغله ودراسته المسائية في (متوسطة الربيع)..

عند دخول الدواعش ترك أحمد الدراسة وبقى متمسكًا بالعمل مع صديقه نزار الذي قال لأحمد بعد فترة وجيزة وجدت عملا آخرًا ومن المؤكد أنك تفرح لي إن كنت سعيدا في مكان يؤمن لي راتبًا محترمًا ...أحمد لم يمانع ولم يسأله عن المهنة التي سوف يعمل بها ومع من؟ أعطى (لنزار) بعد التفاوض مبلغًا بسيطًا وانتهى الموضوع بينهما.

(أحمد) أخذ يعمل بشكلٍ مضاعف لوحده، فكان النهار كلّه يقضيه في منطقة الغابات متنقلا من مكان إلى آخر وحسب كثافة وجود العمال ..ولكن أخذ يتساءل ببراءة مالذي يدفع العمال إلى تغيير أماكنهم في المسطر، طبعا المعروف أن العمال يقفون في منطقة واحدة وينتظرون صاحب العمل ليأخذ منهم مايسد حاجته وهكذا دواليك كل يوم.أحد الزبائن وهو بعمر أحمد تقريبا وهو من العمال المواظبين على حضور المسطر قال له: (أحذر يا أحمد فالحسبة تلتقط الشباب وترسلهم لمعسكرات التدريب)وعندها عرف السبب في تغيّر العمال لأماكنهم، إذ أغلبهم كانوا عندما يرون سيارة الحسبة قادمة إليهم يفرون نحو عمق الغابات ويتوارون هناك، ولكنه أيضا يعجب من عدم مسكه هو بالذات فهو ليس من الصعب القاء القبض عليه، ولا يمكنه الهرب بسهولة مثل العمال الآخرين، فَسَرَ ذلك بتفكيره البسيط من إنه صار)كمين) لهدف الدواعش من حيث يدري أو لا يدري ..

لم ينشغل كثيرا بهذا التفكير، المهم لديه؛ أن يشعر بالنشوة عندما يفرغ (قدر الكبة) ويعود عند المساء إلى البيت وقد أنهكه التعب، وبعد أن يرش على جسمه الماء ينسدح في فراشه ويغط في نوم عميق حتى الصباح، ولكن الوضع لم يبق على حاله إذ ساءت الظروف مع

الدواعش، وطلبتُ من ولدي أحمد أن لا يخرج، وعليه تجهيز -الكبة - وأنا سأذهب بالعربة بدلا عنه، أحمد عنيد ولا يستوعب ما يجري حولنا بسهولة، والدواعش أخذوا بتسجيل أسماء الشباب وكنت قد أعطيت أسم أبني الوحيد أحمد خوفًا من العواقب لأنهم قالوا من لم يذكر أسماء أولاده بالضبط لا نكتفي بقتله أمامهم بل أننا سوف نضطر إلى هدم بيته وهذا ما حزَّ بنفسي أن أرفض إعطاء اسم ابني (أحمد) الذي لم يبالِ بما سمع ورأى وقال: لست قاصرا فأنا أعرف كيف اتصرف، ولم يسمح لي بتحمل أعباء الشغل وكان كالعادة يدفع العربة قاطعًا أشواطًا ترابية كثيرة بين الأحياء حتى يصل منعطف الشارع الذي يفضي إلى منطقة الغابات .

في ذلك اليوم جاءت مفرزة من الحسبة ووقفت أمام كل بيت لتطلب من ولي الأمر أن يوقع لحضور الأبناء المسجلين إلى مقر -الحسبة- الساعة الخامسة عصرًا. بقيت أضرب أخماس لأسداس ماذا أفعل..؟هؤلاء لا ينفع معهم العذر مهما كان السبب،أنهم مافيا متلبسة بالشيطان الرجيم ويكذب من يقول خلاف ذلك، هم قتلة مأجورون لحد النخاع ..

جارنا أبو هاشم بمجرّد أن التبس عليه الأمر في عَدّ أولاده، إذ لم

يذكر أحدهم أخذوه إلى -الحسبة -وجلدوه وأعادوه فاقدا الذاكرة، فماعساني أن أفعل وأنا بين المطرقة والسندان،وحيدٌ لا شفيع لي سوى مناجاتي إلى الله أن يبعد عنا هذا البلاء. قررت ولا أدري ماهي النتائج لهذا القرار، كانت مشكلتي الوحيدة هي (أم أحمد) لأنها شبه مقعدة ولا تتحمل المشي .المهم؛ خرجنا من البيت ولا أتوقع العودة إليه، وعلينا أن نتوجه أولاً إلى مكان شغل (أحمد)وأخباره بأوامر -الحسبة- الجديدة واقناعه بالهجرة من هذه المدينة التي استوطنها مصاصو الدماء، الغريب الذي واجهناه في تلك اللحظة هو خلّو المكان إلا من الطيور والعصافير إذ بدى موحشاً حتى إننا عثرنا على العربة ولكن لم نجد أحمد، يا الله ماذا أفعل !! جلسنا أنا وأم أحمد وماكنة الذهن تدور بها الصور باختلاف ألوانها، صامتين أمام هذا الكابوس، وقد أسودت الدنيا في عيوننا، ما الحيلة إذن؟ الولد الذي تركنا البيت من أجله غير موجود، المرأة تبلع ريقها بصعوبة ويداها ترتجف وهي تأخذ جرعة الماء وعيناها معلقة بجسم العربة، قلت لها علينا أن نذهب لبيت صديقه (نزار) لعله يساعدنا في معرفة مكان أحمد.

كانت عيناها متصلبة وحادة وهي تمدُّ يدها نحو العربة وتطلق

صرخة من أعماقها أحمممممممممممممد وتستجمع كل قواها وتزحف ببطء كما لو إنها تريد أن تمسك بأذيال العربة، ولكن قواها خارت وأخذ جسمها يرتجف ويرتج ويترنح كقصبة في مهب الريح وأنا عاجز تماما ومذهول من هذا الأنهيار المفاجئ وهو يسلب مني رحيق عمري وليس بمقدوري مواجهة ما أنا فيه .

وبعد أشهر من البحث عن أبني أحمد، وأنا أكاد أقطع طرق المدينة واحدًا واحدًا، وبعد أن تأكد لي هدم داري وسلب محتوياته وكل ما اقتنيناه من أثاث نزفنا من أجله العمر كله لم يعد لي سوى أن أفترش الطرق ملاذا لجسم يذوي أكثر فأكثر. يوما بعد يوم وإذا بي أرى (نزار) يخرج من سيارة اسعاف حيث يسحب الجثث مع جماعة تبدو اشكالهم ولباسهم غير عربي كما هو ظاهر على هيئتهم ويعلقوها على أعمدة الشارع، كانت أسمالي المرتقة وجسمي الذاوي لا تثير نوازعهم، أهملوني وانصرفوا عني بدون اكتراث لرجل ظلَّ متسمرًا تحت العمود الثامن، هو أحمد بشحمه ولحمه، كان عنيداً حتى في موته، وأنا بقيت متسمرّاً بإنتضاره مع يقيني أنه لن يعود.

أطلال المكتبة

(محمد أحمد عزام الموصلي) صاحب مكتبة السعادة هو والدي ومكتبته كانت أكبر مكتبة في الجهة اليمنى من مدينة الموصل، وبمرور الزمن أخذت تنافس مكتبة الإعدادية الشرقية في زمانها،والتي أصبحت فيما بعد مكتبة الجامعة والكليات التابعة لها، كذلك فاقت على كتب المكتبة المركزية داخل المدينة في عناوين الكتب الحديثة التي يحتاج إليها طلبة الدراسات العليا،فهي تحوي أمهات الكتب ومن مختلف الاختصاصات؛حتى كان يقصدها الباحثون والمحققون من مختلف أصقاع المعمورة لما لها من مكانة في قلوب رجال العلم. الشيء الذي لم يعرفه أحد عن هذه المكتبة الكبيرة إنها مستأجرة من مديرية بلدية المدينة. كلّما كان والدي يحتاج أن يوسّع عمله في المكتبة كان عليه أن يخبر البلدية ويستحصل على الموافقات الرسمية والأصولية لذلك، وكنت قد أطلعت على بعض من تلك الموافقات فالمكان هو عبارة عن بيت تعود ملكيته لامرأة أرمنية كان زوجها العراقي ضابطا

في الجيش العثماني، وأثناء حرب (القوقاز)وهروب العائلات من ويلات الحرب تعرّف عليها في مخيم اللاجئين وعاش معها العمر كلّه في هذا البيت الذي تمَّ تسجيله باسمها ليكون دليل عرفان واطمئنان لها. أما هي ولكي يبقى البيت رمزا لوفائها له أوصت أن يكون البيت مكتبة عامة .

وعندما كان أبي يبحث عن مكان لائق لإنشاء مكتبة حضارية دلّته وأرشدته البلدية على هذا البيت، وبعد أن راق له مكانه الاستراتيجي الذي يطلُّ على عدّة منعطفات وسط المدينة، أسرع بالسفر لعدة بلدان لجمع أمهات الكتب .وفي أقلّ من سنة كان صيتها قد وصل الى كلِّ مكان. استغل كلّ مساحة البيت بما في ذلك السطح، إذ قام بصيانته وجعله مؤهلا للمطالعة، وكانت آخر وصية للوالد رحمه الله: ابني –أكرم – لقد أكرمني بك الله فلا تكن غليظ القلب بل أريد منك أن تكون وفيًا لهذه الكتب فهي أرواح تسبح في فضاء المكتبة كن رؤوفا وكريما في معاملتها، فكانت وصية والدي قاموسا أتمسك به في الاعتناء بالكتب وبعض الأحيان؛ أصغي لها بتروّ وتأمل، حتى أني كنت لا أتأخر بالسؤال عن أي كتاب مطلوب، فأنا أعرف بأي مكان موجود وبأي رفٍ يسكن، كلهم أصدقائي الحميمين أغلب المرّات أترك المنافذ مفتوحة كي يتغير الهواء الداخل باستمرار.

لم يكن بالحسبان أن يأتي اليوم الذي أجد فيه أن كل شيء قد تغيّر في هذا المكان، فهو جزء من حياتي وكياني ومشاعري وأحاسيسي، حتى الحيطان بلونها البني الساحر مع لون الورق أشعر باشمئزازه عندما يعتلي زوايا سقفه عش العنكبوت، لا أرشها بالمبيدات خشية أن تتلوث تلك الحيطان فأزيح نسيجها بسعف النخيل فهي أكثر لطفا في محو آثار خيوط العنكبوت .

دخل الدواعش دخول المارد الوحش الكاسر، استباحوا الحرث والنسل وعاثوا في الأرض فسادًا،شيخ كبير، امرأة، طفل، صبي لا أحد كان يجرؤ على النظر في وجوههم، طمعهم في كلِّ شيء. وفي ذات يوم وأنا في السوق طلبوا من بائع السوس وهو رجل متوسط في العمر أن يسقيهم، فخضع لطلبهم الرجل وسقاهم جميعا وعندما انتظر منهم أن يدفعوا له أجور السوس، قال له أحدهم (جبايتك لا تعادل ما شربناه، إحمد ربك اننا لم نحاسبك على ثوبك الطويل، فهذه الثياب ثياب الكفر لا تليق بدولة التنظيم). فسكت الرجل وولّى هارباً بين الأزقة القريبة.ومرّة في سوق الخضار وجدت جماعة من (الحسبة) تجمع جباية المحاصيل من البائعين وكان أكثرهم يشكون من قلّة البيع نتيجة مكوث أغلب الناس في بيوتهم، ولكن هذا العذر لا يشفع لهم) فالجباية تعني الجباية بلا منازع) وهكذا يضطر البائع أن

يدفع من جيبه أفضل من أن يُجلد أمام الملأ بحجة مخالفة تعاليماتهم. كانت سطوة الوحوش الدواعش تمتد إلى الحريم، وهذا ما رأيته عندما أوقفوا زوجا وزوجته وأطفالهما وهما يطلبون من الزوجة أن تضع الخمار على وجهها ولا تمشي مكشوفة الوجه أمام الأغراب، في حين أن أمراءهم تغلق مدارس البنات وتقوم بسوق أغلب المعلمات والطالبات إلى الاحتجاز لديهم، ولا يُفرج عنهنَّ إلا بعد مساومة ذويهن بدفع الجزية أو اعتبارهن (إماء)، يمكن بيعهن في سوق السبايا الشهير في الموصل.

ولا أنسى صبيحة ذلك اليوم الأسود الذي وجدت فيه تلك العبارة المشؤومة مكتوبة على جدار المكتبة) دولة الإسلام باقية وتتمدد) قلت في نفسي: من أي إسلام أنتم، كل مافيكم قبح ورذيلة واستهتار وبطش وقلبتم معادلة الرسول في احترام الإنسان التي تقول :(الإنسان بنيان الله ملعون من هدمه) لقد تماديتم على كل الأعراف السماوية وتجاوزتم على حقوقها، وبعد أن استعذت بالشيطان الرجيم،دخلت مكتبتي مثل كل يوم، وأنا أحمل بيدي قصبة الريش لتنظيف الكتب ومنهمك بإزالة الغبار عنها وإذا بصوت نسائي يسألني عن كتاب - عالم الأرواح - لجودي الحربي؛ طبعا الشيء المستغرب في هذا الظرف أن يُطلب مني مثل هذا الكتاب، فأغلب

العراقيين لم يعرفوا (هوس)هذا الكاتب العراقي بتحضير الأرواح، عموما إنَّ أغلب الكتب المهمّة سواء تاريخية أو اجتماعية أو سياسية أو فكرية قد أخفيتهن في مكان ما لأني بدأت أشك في نيات الدواعش السيئة وكان هذا الكتاب من ضمن الكتب التي أبعدتها عن المكتبة إحترازا من أي أمرٍ طارئ، ولكن لا أخفي أعجابي الحقيقي بهذه البنت المثقفة وطلبتُ منها أن لا تعيد طلب مثل هذا الكتاب الذي قد يضرّها وعليها أن تصبر حتى تنجلي هذه الغبرة؛ تفهمت قصدي بحياء وانصرفت.

وبعد لحظات دخلت مفرزة من أفراد (الحسبة)، طلبوا مني أن أتنحى جانبا، وقاموا بالتفتيش في كل أرجاء المكتبة، وأمام عيني أخرجوا كيسا من الحبوب من نوع (كرستال) كما يبدو، قالوا لي هذه مكتبة علم ومعرفة أم هي مركز لتجارة الحبوب؟ وعندما حاولت أن أدافع عن نفسي لم (يمهلوني)؛ قالوا لي :(أدِرْ ظهرك على الحائط ولا تتحرك)، صرت مثل الظلال ملتصق بالحائط، لعنت بسرّي هذا الحظ العاثر، وفكرت ما لذي أتى بهذا الكيس المشؤوم إلى هنا؟ ومهما أزعم عدم درايتي به سوف لن ألقى أذنا صاغية، يعني التهمة لاصقة بي مهما فعلت. كان ريقي يابسا وبدني يختض والهواجس اللعينة تعصف بي شرقا وغربا، ولا من مُعين ولا شفيع لي في تلك الساعة

غير الله، ناديت بيني وبين نفسي شفاعة كل الأولياء الصالحين أن تحضر كراماتهم معي، فأنا في قبضة مخالب ذئاب البرية التي لا تستلذ إلا بطقطقة عظام الضحية، وهرسها كما تشاء، عصبوا عيني وقادوني خارج المكتبة وأنا لا حول لي ولا قوة ..

وضعوني بعد ذلك في دهليز أظلم وقالوا لي: نعرض أمرك على قاضي الحسبة. وبقيت في ذلك الدهليز قرابة أسبوع وإذا بنزيل جديد يدخل عليَّ، حالته يرثى لها، يأن من كل مكان ويشكو من آلام مبرحه في الظهر، فأخذت أساعده قدر الإمكان، في كل شيء يحتاج إليه وكانت قواه منهارة جدا، فحكى لي بعد أيام من أنه من جماعة الحسبة وأخذ يقصّ حكايات عديدة عن أفعالهم ونياتهم وهي حكايات يندى لها الجبين، وأعترف أمامي بأنه إبن المدينة العاق، وكان أشرس ما سمعته منه هي عمليات الاغتصاب المشينة الذي قال أنه بسببهن حُكم عليه بعشرين جلدة لأنه اغتصب احدى محضيات الأمير ولكن مالفت نظري قوله: أنت صاحب مكتبة السعادة. استغربت قوله، قال أنا كنت ضمن مفرزة الحسبة عندما خططنا إرسال كيس الممنوعات لكي نتهمك، يا إلهي ما هذا الاعتراف؟ وقبل أن يقول لي شيئا آخر حول اختيار فتاة متعلّمة لتقوم بهذا الدور من سبايا الموصل، قلت له بحزم، يعني أنت دليل براءتي، سَكَتَ بُرهةً وقال هذا سرٌّ ومن يفشي

بالسر يُنحر فهل تقبل أن تُقطع رقبتي .

وبعد شهر من زنزانتي المقرفة والمظلمة هربت، هروب لا يشبه أي هروب آخر، فهذه الزنزانة هي بالأصل سرداب، والسراديب في الموصل دائما ماتكون تحت البيوت المتلاصقة مع بعض، وكنت أنا أصلي دائما صلاة الليل فيها، وكان الجار (عدنان)من الناس الورعين أيمانا وخلقا، قد حفر كوّة، وكنت أسمع أصوات الحفر في حينها ولكن كان لا يهمني ذلك. كان عدنان مصرًا على الهروب إلى السليمانية بعائلته وتعهد لهم أن يأخذني معه. وعند خروجي رأيت الدنيا كأني لأول مرة أراها من قبل، لمحت مكتبتي قد أكلتها النيران وعصفت بمحتواها كما لو تعصف الريح بقارب وسط المحيط .

سرقة الأعضاء البشرية

كُنا خمسة أشخاص مشكوك بولائهم لدولة داعش المزعومة،اثنان خرجا من دائرة الشكوك،وحسم أمرهما لأن اسميهما (باقر)،والآخر (زين العابدين)،ولا ندري مصيرهما وإلى أين استقر به الحال. ومن المعلوم أن عقيدة القتل لديهم غريزية، أي أنَّ الداعشي لم يؤمن بالحياة أصلا فكيف يهبها لغيره ولهذا لا يهمه كم عدد من الناس سيقتلون، هم لا يفكرون مثل البشر بل يستعيرون شكل البشر فقط، هم مافيا مدربة على مقولة) إن لم تقتل تُقتل) فلا دين ولا مذهب رادع لهم؛ هم أشبه بالحيوانات الوحشية التي خرجت توًا من الغابة، يسكنها التوحش أين ما اتجهت أنظارها، تصدق أو لا تصدق إنهم يحتجزون أطفالا رضع يسلبونهم من أحضان أمهاتهم ويستلذون بطريقة الموت التي يتعرض لها هؤلاء الأطفال أمام أعينهم من دون أن يرّف لهم جفن ..

بقينا نحن الثلاثة أنا (أسامة) وصديقاي (غانم ويعرب)، قابعين تحت قهر هؤلاء الأجلاف الذين يتناوبون على أن نجرع السُمَّ الزعاف

على أيديهم، حيث مثل كلّ مرّة يطلبون منا أثبات هويتنا على أننا من محافظات الشمال، وليس من محافظات الجنوب، وكلما نُعطي لهم دليلا يقابلونا بالزجر ويتهمونا بالكذب ويتوعدونا بالنحر، بحيث لم يبق لنا ما يجعلنا نتمسك بالحياة أمام هذه الطغمة الباغية، فان قلنا الحقيقة بأننا نواصب إلى حد النخاع وأننا لم نكن من أهل الروافض لم يصدقونا، وإن قلنا أننا نتيجة الفقر والجوع ألتحقنا بسلك الشرطة فهم يعنفونا بكلام سليط وتهجم على سلالة أجدادنا وعلى أعراضنا وإننا عملاء للحكومة.

الذين قاموا بحجزنا هم مغاربة وأميرهم عراقي من منطقة الشرقاط، وكنيته أبو عوف، هؤلاء المغاربة كانت لكنتهم ليس فيها مدنيَّة وإنما خليط من لهجة البربر العربية الأفريقية والأمازيغية ويصعب فهمها بسهولة ماعدا كلمة (العرب المجوس) التي يطلقونها بوجوهنا فهذه كانت واضحة تصل أسماعنا كرعدة مدويَّة تسبق الجلد العنيف، حيث تظهرعدوانيتهم البغيضة في ضربهم المبرح الذي يؤكد قدرتهم الفائقة في التوحش، وعندما يغمى علينا لا يعيدوننا إلى الزنزانات بل يتركونا عرضة للمشاهدة في الباحة لكي يتعظ منا المحتجزين الجُدد، ويدلوا باعترافاتهم قبل فوات الأوان ويكونوا

عرضة مثلنا للجلد، يعني أن بقاءنا أحياء كان الغرض منه أن نكون عبرَة لغيرنا وليس لمجرد التحقيق .

وبعد أن ساءت صحتنا نتيجة التقرحات التي أصابت الجلد وسوء التغذية والكدمات المتفرقة في أنحاء الجسم ولم نعد قادرين على الوقوف على أقدامنا، نقلونا إلى منطقة - بادوش - وهي تقع قرب مدينة تلعفر، وهناك أخذوا منا تعهدا بالإكراه يلزمنا الأنخراط في فوج الأنتحاريين، وبما أن بعضنا يعاني من اعتلال الصحة بحيث أعراضنا صارت واضحة للعيان، ولا تحتاج إلى شكوى وتبرير إذ مازلنا نئن من مضاعفات الجروح وقروحها الكريهة ومع ذلك أخذوا منا التواقيع وسفرونا إلى المركز الصحي في جزيرة (كنعوص)،وهناك كانت عمليات البتر تقوم على قدم وساق.

هو لم يكن مركز صحي كما أوهمونا،وإنما مركز للإعاقة، فهو من يحدد نوع الإعاقة التي يستحقها الأنتحاري. وبعد اسبوع من التداوي قمت أتحسس بشكل لا أرادي قدماي ويداي، وعندما أشعر بهما سالمين تأخذني الغبطة وأنام مرتاح البال وهذه الحال تتكرر معي بعد النوم دائما .

حالة من التوجس تنتابني وأتساءل هل هي حالة نفسية أم أنها

نتيجة الخوف؛ من (بتر)عضو من جسمي؟ ولكن بعد أسبوع اكتشفت أنهما الأثنان يطغيان على تفكيري،إذ أخبروني أن لديَّ شهر إضافي للنقاهة، كنت أحس يوما بعد يوم بأني أتماثل شيئا فشيئا للشفاء. وأنا في غمرة نشوة خفوت الآلام فكرت بصاحبي (غانم) و(يعرب)، لم أجد لهما أثر في الردهات ولا أحد يذكر اسميهما. يا للعجب نحن الثلاثة دخلنا معاً لهذا المركز ولا أحد لديه هنا علم بهذين الاسمين .

استولت عليَّ حالة من الظن بأني أعيش الوهم وأن ما يحصل لي إنما هو صور لا أصل لها من الواقع، ولكن وجودي في المركز الصحي وبردهة النقاهة فانَّ كلّ شيء أمامي يدلُّ على أنني لم آتِ لهذا المركز بمفردي، بل كان (يعرب وغانم) معي أيضا، بل أجزم أنني لم أكن بمفردي، فقد كان كل واحد منا هو مرآة للآخر، لم نتكلم مع بعضنا ولكن ملامح عيوننا تخبئ حكايتنا قبل وبعد الزنزانة، كلّ واحد منا يتجسد في الثاني إحساسًا ومشاعرًا. الغياب الأول كان باقر وزين العابدين، إذ مازالت مرارة ذكراهما لا تغيب عني لأستفيق على انكسار آخر،سعلتُ سعالا شديدًا سقطت العصى من يدي، ومسكت بطني ولا أدري ماذا حصل لي بعدها .لا نعيش جو الألفة فالكل هنا منكفئ على نفسه، لا أحد يقابل الآخر بالتحية والسلام، كل عباراتهم كانت

زجرًا وكلاما حادًا وغليظا،فحالة المريض لا تتعدى العلاج ومراقبته بدون كلام، فنضطر في هذا الجو الملغوم أن نسكت أمام كل المناظر المستفزة، فالذي يموت أو الذي يصرخ من الألم أو الذي يكتشف إنه بساق واحدة أو عين واحدة أو تقطع يده من حد المفصل، عليه أن لا يفتح فمه ويحتج، والغريب أن كلّ حواسي لم تصاب بضرر،فأنا بعد أكثر من شهرين في هذا المركز أستطيع أن أتحرر من عبودية السرير والعكازة .

الأخبار وإن كانت قليلة ولكن مايتسرب عنها واضح أن القوات الأمنية على مشارف مدينة تلعفر، لم أستطع النوم تلك الليلة، لا أدري بالضبط كيف أصل إليها، وبأي وسيلة، ولا أعرف أي الطرق ممكن أن تكون سالكة. تسللت إلى رحبة العجلات مع انبلاج الفجر، كانت سيارة الإسعاف جاهزة فتحت بابها وأنا أقرأ بيني وبين نفسي :» بسم الله عليك توكلت ياحي يا قيوم (وانطلقت. لا أحد ضرب النار خلفي، اتجهت نحو عمق الصحراء، ولم يدر بخلدي أنَّ النيران الصديقة لو رصدتني سوف تقلعني من جذوري لأن الخروج من صوب داعش بسيارة يعني إنها مفخخة حتى لو كانت اسعاف، وفجأة حاصرني شقٌّ أرضي، اضطررت الى ترك السيارة والمشي على القدمين.

كانت الأرض خالية تماما إلا من بعض الإنفلاقات التي تدوي من مكانات بعيدة، وتحت ظل جبل صغير انسدحت قليلا، كنت محتاجاً إلى قيلولة أستعيد بها طاقتي المنهكة، وإذا بي أسمع (جرس) ماشية يخفق بالقرب من أذنيَّ، قلت في نفسي :(يا الله غيثك) وأخذت أدير عينيَّ يمينا وشمالا، وعندما لم أعثر على شيء عدت إلى حالتي ثانية ولكن سرعان ما راودني وقع الأجراس مرَّة أخرى، كان وضعي يخفق في اصطياد المصدر؛ لا أبدا لم يخفق ولكن حالتي أخذت تسوء واختناقات تحشرج في البلعوم وأنا أتقيأ أحشائي كما أظن وصار كل شيء ضبابياً.دوران وتقيأ وأنفاسي تتباطأ، ثم فجأة شعرت أن جسدي أخذ يخف شيئا فشيئا وأنا أحس بخفة لا مثيل لها، كما لو أني طير محلقا في الفضاء، قلت لنفسي :(يالهي ماذا يجري من حولي).

وحين فتحت عيني، ظلّت أجفانها ترمش لبرهة من الوقت بلا استقرار ومع ذلك لمحت ملائكة الرحمة في المستشفى العسكري تراقب تنظيم الأجهزة الطبية وهي مشدودة إلى جسمي عبر أسلاك عديدة. وبعد أيام رفعوا عني تلك الأسلاك وأخبروني بخبر نزل عليَّ كالصاعقة: لقد سرق منك الدواعش (كلى) وعليك أن لا ترهق نفسك أبدا فصاحب (الكلى) الوحيدة لا يمكن أن يواجه التعب

والإجهاد معا، ولولا راعي الصحراء ينقذك في الوقت المناسب ويسلمك للقوات الأمنية لكنت هباء منثورا ..

مارواه الشيخ عن مَرسى علي

كتم الجندي (مروان) في نفسه ماقلته إليه، ولم يذكره أمام أحد وبقى حذرا من صعود أعلى نقطة في الجبل، ذلك العلو الصخري المشرف على مساحة ليست بالقليلة على مدينة (طوزخورماتو). جبل أشم له إطلالة مميزة على الجهات الأربعة وتنتشر حوله العديد من عيون الماء العذب، سائغ للشراب مما دفع الأهالي أن تقصده من كل مكان لغرض الحصول على الماء النقي .

الحالة الغريبة التي استولت على (مروان) أصبحت مثيرة لمن معه في الحضيرة، ويتكلمون عنها بشتى الأوصاف، وعندما بلغ هذا اللغط الحد الذي لا يمكن السكوت عليه تدخلت الجهات الأمنية وأخذوه إلى جهة غير معلومة. وأثناء الغياب كانت صورته لم تفارق الحضيرة، إنه شهم وكريم وشجاع وكانت مروءته تسبق كرمه، فهو ميسور الحال ولا يتأخر عن مساعدة الآخرين، ولكن لا أحد منهم قد توصل إلى قناعة حول حالة الهستيريا التي تصيبه عند تسلق –

مرسى علي – في الغروب.

لقد زارني والد مروان وهو يعلم أن ولده قد مضى عليه أكثر من سنة ولم يأت منه خبر طالبا مني أن أستلم منه أمانات كان قد أودعها مروان عند أبيه، وهي كتاب الله وسجادة ومسبحة، قلت له: كيف اهتديت إلى منفاي الاختياري؟ علما إني اخترته بمحض إرادتي؟ .قال بعفوية: إن ولدي لا يُخفي عني شاردة أو واردة، لقد كان يتكلم عن سجاياك وخصالك وتقواك ويقول:تأخذني الغبطة لزيارته كلما سنحت لي الفرصة، فهو يعوضني عن ألم الغربة وشجونها ووحشتها، قلت له: ألم تزر الحضيرة وتسأل عن مروان" قال بعد أن قطب حاجبيه: كل الحضيرة التي كانت معه تفرقت ولا أظن أن أحداً منهم يعرف شيئا عنه الآن ...

في ذلك المساء طاف عليَّ مروان، وقال لي: ياشيخ حاصروني بالأسئلة وأرادوا أن يعرفوا مَن الرجل الذي كنت ألتقي به؟ لم أقل لهم شيئا، فبالرغم من التنكيل والتهديد والضرب المبرح لم أتكلم، وأوعدوني بالموت الزؤام، وأني قريب جدا من ذلك اليوم إن بقيت ألوذ بصمتي. أنا حاولت أن أقول له أن أباك سلّمني الأمانة وهو يكظم غيضه من شدة الفراق، كنت أراه مبتسما يسطع وجهه بنور

الضياء، ومن يومها لم يختفِ عني ذلك النور كلما يعتصرني الألم وتضيق نفسي بالكروب أحس بهذا الوجه ينتشلني مما أنا فيه فأشعر بالغبطة .

أبو علوان لم يزرني بعد ذلك اليوم فالطريق من كربلاء إلى طوزخورماتو مزروع بنقاط حراسة ومراقبة مشددة،وصار وضع المدينة ملتهبا بالأقاويل والأحاديث وخصوصا بعد تبديل النقطة بأخرى كثر التسريب عن كرامات – مرسى علي– .

أنني أتذكر ذلك اليوم الأسود حينما اقتادوني وأنزلوني من المقام وقالوا لي، إياك أن تفتح فمك، هذه نقطة عسكرية وليس لها علاقة ب .... ..، وبدون نقاش كانت البلدوزرات تلتهم كل مظاهر (المقام) من كل جانب والناس من شدة خوفهم أغلقوا الأبواب وتواروا عن المقام الذي كان ملتقى لكل الطوائف والملل في الأعياد والمناسبات ويتبركون به، ويستجيرون به من كروب الدنيا وأشجانها وأحزانها ولم يعد أحد يمر من أمام – مرسى علي – إذ بقى حبيسا تحت جعجة سلاح النقطة .

كنت أقول من منفاي يا مروان لا تجازف بزيارتي، ولا تعرض نفسك للخطر فهؤلاء ليس فيهم مروءة الإنسان الذي خلقه الله

بأحسن تقويم انهم جاحدون وناكرون للأعراف والمواثيق، فكنت أرى في ابتسامته التي تقابل تحذيري إيمانا عامرا في داخله لا يهزمه خوف أو قلق، أو أنه أراد أن يقول لي بثقة: إن كل شيء سوف يعود مثلما كان، المقام المبجل، وزيارة الناس وتبركهم بهذه البقعة الطاهرة من – مرسى علي – وأخذت أفكر جليا بهذا الأمل هل يأتي فعلا؟ هل أعود لروضة الجنان وأخدم زوار عترة آل محمد في هذا المقام الشريف؟ أم هي أضغاث أحلام تأتي من شدة الضنك وقسوة البلوى، ولكن لا رادَّ لحكم الله الذي يقول للشيء «كن فيكون»، كان وقع الحدث على النفوس الولهى بذكر آل البيت له طعم الشهد أن يهزم الدكتاتور ويسقط الصنم فهبت الناس زرافات ووحداناً إلى الجبل وصارت الجموع أفواجا أفواجا تتسلق سفوح – مرسى علي– وتبعث الروح في الرماد، القبة الخضراء عادت تطل وتشرف من جديد على وجه المدينة لتحتضن ذاكرتهم ولكن ليس كل ما يتمنا المرء يدركه، كانت الغربان الداعشية تعشعش في محاجر (حمرين)وبين فينة وأخرى تهدد زوار المقام، والأسوأ من ذلك أن هؤلاء الشراذم كانوا يعمدون إلى ذبح الأبرياء ويتمادون بتعليق الجثث الطاهرة على أعمدة الكهرباء لترهيب الناس وافشال مخطط إعادة الشعائر الحسينية، فعاد الخوف

يتسلل في نفوس الناس، فكنت أدرك أن الترهيب هو وسيلتهم الوحيدة ..فكتبت على جدار المقام الشريف (هيهات منّا الذلة)، وفي اليوم التالي كانت وفود من الشباب يكتبون على وشاح يرتدونه (هيهات منا الذلة)، وهم يزوروني في المشفى الذي كنت أعالج فيه من لغم أرضي هشم ساقي ..الأغرب من ذلك أني رأيت من بين الجموع مروان وهو يتخطى بابتسامته العذبة مكامن النفس الواهة إلى رؤياه.

قرية باجوان

عندما عُينت في منطقة نائية مُعلمًا، كنت أذهب من القرية إلى المدرسة على دراجة هوائية، والطريق لم يكن سالكا وخصوصًا في أيام الشتاء حيث تكثر المستنقعات والأوحال ويصعب اجتياز هذه المعرقلات بسهولة. كنا ثلاثة معلمين حصتنا كل الدروس المخصصة للطلبة، ومدير المدرسة لم (نره) إلا نهاية الشهر فكان يوزع الرواتب ويختفي .

المدرسة صفوفها من القصب والبردي والحارس(رجب فجوري) انسان شهم من الرجال الأصلاء، يقطن بذات المنطقة حيث يقوم بين مدة وأخرى على ترميم أوضاع الصفوف، علمًا أن الطلبة يفترشون الأرض طوال السنة الدراسية فلا توجد فيها (رحلات) مثل بقية مدارس القضاء أو الناحية التي تتوفر فيها مستلزمات الدراسة؛ فهي قامت بمساعدة أهالي المنطقة، وكان لولب هذه الفكرة هو(رجب) ولم يكتفِ بذلك بل يساعد التلاميذ أحيانًا على الوصول

إلى المدرسة بواسطة (تراكتور) يعمل عليها بعد الدوام في استصلاح أرضه الزراعية. (رجب) طيب القلب وخفيف الظل وصاحب طرفة بحيث لا تشعر معه إنه يخفي آلام مرض ابنه (حسين) الذي تعرض لحادث سير نجا منه بأعجوبة،ولكن خلفت لديه عاهة مستدامة وهي (الصرع)، وبقيت ملازمة له رغم مناشدة السلطات في القرية من أجل توفير العلاج كحال الأمراض المتوطنة (المزمنة) لكن لا يتلقى إجابة شافية منهم، مما يضطر للذهاب إلى مستشفى (كيوان) على طريق منطقة (الدبس)، لغرض جلب العلاج لأبنه الوحيد (حسين)،وهي مسافة ليست بالقصيرة التي يقطعها في ظلِّ صعوبة المواصلات ووعورة الطرق .

قلت نحن ثلاثة معلمين في المدرسة أنا (الحاج مرزة)أدرس التاريخ والتربية الوطنية والعربي والاسلامية و(محمود بازركان) يدرس العلوم والرياضيات و(فاخر الصميدعي) يدرس مادة الأنكليزي والرسم والنشيد، وبعض الأحيان يسد الشواغر لأن بيته ضمن المنطقة. ذات يوم زارنا المدير بشكل مباغت وقال لنا بالحرف الواحد: الحشود الأمريكية على الأبواب ولابد أن نتطوع للدفاع عن بلدنا» .هنا انبرى الحارس وقال برجاء: يا أستاذ كلنا فداء للوطن

ولكن أنا ظرفي مختلف، لدي ولد عليل وأكافح حتى أحصل له على علاج أجابه المدير بانفعال:

وكيف أسمح لنفسي أن يكون أحد كوادري في المدرسة متخاذلا»،ولم يتردد (ابو حسين) من تقديم الإستقالة قائلا له: أرجو قبولها .. لا أريد أحراجك أستاذ. .وبعد هذا القول، لم نألوا جهدا من ثني أبي حسين عن قراره ولكنه رفض بشدة كل وسائل الإقناع التي بذلناها معه.

اختفى (أبو حسين)، ومدرسة القصب أصبحت أشلاء لا معلمين فيها، ولا طلاب والريح وحدها تصفر في جنباتها،وكانت الأخبار تتسارع حول نشوب الحرب واحتمال كبير أن يحصل المكروه في بضعة أيام. نحن المعلمون لزمنا بيوتنا في أول الأمر ولكن حين دارت الحرب رحاها صار القصف لا يفرق بين كبير وصغير ولا توجد ملاذات آمنة في ظل عواصفه العشوائية التي أصابت أحد أنابيب النفط المار بالقرية مما سبب إرباكًا للأهالي، فالنار كانت تشكل امتدادا شاسعًا في فضاء القرية والأغلب فرَّ إلى أماكن مجهولة، وفي تلك الساعة اتخذت قراري في اللجوء إلى (حسينية الحاج أحمد) كمأوى مؤقت.

بعد عدّة شهور ونحن على حالنا لم نفارق الحسينية، أصبحت المعاناة أقسى من الأيام الأولى حيث شحة الماء والأرزاق والمؤن، وخصوصًا حليب الأطفال الذي كان نادرًا أو بالأحرى مفقودًا ولا أثر له والكثير من الأطفال كان يعاني الجفاف نتيجة سوء التغذية مما تسبب في بطء النمو وانخفاض الوزن وفقدان الطاقة ومما زاد الطين بِلّه هو دخول رجال ملثمين الى الحسينية، وهم يرفعون الرايات السود ووجوههم مكفهرة وأياديهم على قبضة الزناد، أطلقوا عيارات نارية داخل الحسينية ومن ثم قاموا بعزل النساء عن الرجال، وأنا والحاج أحمد من ضمن الرجال الذين ساقونا في ذلك الليل المتشح بالسواد الداكن، فكنت أختلس الخطى وأتأخر في الظلام رويدا رويدا، فصادف أن وجود أبنية خربة أثناء اقتيادنا تحت رهبة السلاح؛ توكلت على الله وقرأت شيئا من سورة ياسين:«وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»، ورميت نفسي في أحدى البنايات الخربة. كانت لحظات عصيبة لا يمكن لإنسان أن يتحمل ضغط مخاوفها ولهذا كنت متوجسًا من أي تصرف.كانت انظاري تتجه نحو أبي حسين فهو الوحيد الذي خطر على بالي في تلك اللحظة، هو حتما يملك السلاح ولا أظنه لا يلبي نصرة أهله

لما يتصف به من نخوة ومروءة. أخذت أخطو بحذر لبيته في المنطقة، وفجأة سمعت نباحًا قريبًا مني، حاولت أن ألوذ بظل التلال كي لا تراني الكلاب الطائشة في منتصف الليل ويزداد نباحها ثم قررت بعد ذلك أن أندفع بسرعة متجاوزًا أهلي في الحسينية وما جرى لهم بغيابنا نحن الرجال، أريد أن أسبق الوقت قبل فوات الأوان، يرخي الليل سدوله وأنا بجنح قلق ومذعور أخشى أن أفقد بوصلتي بعد أن غامرت وتملصت من قبضة الوحوش الطارئين، وإذا بشخص يمسكني من كتفي .

جفلت للحظة ودبت في كل بدني قشعريرة؛ استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وأنا ألمح رجلا آخر خلفه لم أتبين أوصافه بدقة أول وهلة، كان يحمل صندوقًا بيد والسلاح بيد أخرى، أخذ السلاح منه والتفت نحوي وهو يفتح اللثام، كدت أن أصرخ (ر..ج ...)لولا أن يبادر ويطبق على فمي بيده طالبًا مني السكوت في هذه اللحظات العصيبة؛ قالي لي: أعرف قد تدربت على السلاح يا حاج مرزة. وبعد أن سلمني السلاح، أردف قائلاً:تهيأ وسرّ خلفي.

كان السلاح ملطخًا بالطين كي لا يلمع ويراه الأعداء. وبعد هنيهة قال: عندما نصل إلى المكان أنت تكون من جهة وأنا من

جهة أخرى، علينا أن نستخدم أسلوب القنص، لأننا لا نريد أن نؤذي المحتجزين.وهذا ماتم بالفعل.فكان القنص دقيقًا إلى درجة خلق لديهم الإرباك، ودفع الكثير من المحتجزين إلى الفرار.هؤلاء الشراذم بعد أن يأسوا من تحقيق مأربهم .كانت نارهم نار الأنسحاب العشوائي مبعثرًا، سمعت رجب حينها يقول لي: لا تخفت في همتك استاذ مرزة؛ هؤلاء الجبناء لا يتحملون الاصرار والعزيمة، نحن عزيمتنا نستمدها من (يا لثارات الحسين) .

غبار المعركة أوشك أن يتلاشى التي لو لا نباهة أبي حسين لكانت مجزرة في القرية،رفعت سلاحي لإستبدال (الشاجور)،وإذا بي أرى (رجب) منكبًا على الرجل الذي كان يحمل صندوق العتاد يقلب جسمه يمينًا وشمالاً، ومن دون أن ينبس ببنت شفه عرفت أنه (ولده) وفلذة كبده يزفه قربانا للتضحية

أصحاب الثغور

عندما ركنتُ سيارة النظافة في المرآب المخصص لسيارات البلدية،أخبرني الحارس (جمعة) بأن التعليمات الجديدة تنص على أن السيارات لامبيت لها في الكراج بعد الآن خوفا عليها من هجوم الإرهابيين، وكل سيارة أصبحت بذمة سائقها..أعدت وجهتي على الفور متجها نحو الطريق العام، وأنا أعيش هواجس الوضع الأمني المنفلت في كل قضاء – داقوق – ومحيطها، وعليّ أن أقطع عشرات الكيلو مترات حتى أتمكن من عبور الجسر العثماني،ومنه أسلك طريقا ترابيا للوصول إلى مقام ضريح الهادي بن المهدي من أولاد الامام موسى الكاظم عليه السلام.

لأمر مهم أبلغنا به الشيخ عبر مكبرات الصوت في الحسينيات والجوامع المنتشرة في كل القضاء وقراه، التوجس لم يكن من هؤلاء الشراذم الخارجين عن ملّة الإسلام من القاعدة والدواعش، لكن خوفي من تحمل الأمانة التي أودعتها البلدية عندي، أخذتني

القشعريرة وأنا أردد دعاء الأمام السجاد عليه السلام لكشف الهم: «ياكاشف الغم يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما صلِّ على محمد وآل محمد وافرج همي واكشف غمي».

كان الوقت يقترب من الغروب عندها لمحت مؤشر الوقود يشير الى قرب نفاد الوقود، والشارع الترابي بين القرى قبل الوصول إلى الجسر خطر جدا،وتنتعش فيه حركة الارهابيين، وسبق أن حصلت فيه حوادث تنزف لها القلوب دمًا، كانت آخرها صباح اليوم، إذ شاهد الأهالي رؤوس معلقة لطلبة من أبناء هذه القرى الذين فقدوا على طريق محافظة صلاح الدين واختفت أخبارهم من يومها لتظهر هذه الوجوه المغدورة الغضة بلا جثامين وهي معلقة على الأعمدة الكهربائية، ولا ذنب لهم سوى أنهم من مذهب آل البيت عليهم السلام ولذا طلب (الشيخ واصف الحسيني). من كهول هذه القرى وشبابها الذين يقطنون (تازه) و(البشير) و(التون كوبرى)و(عطشانة) وغيرها من القرى المتاخمة للناحية إلى الحضور بعد صلاة العشاء...

الدقائق كانت حاسمة بعدما أوشك الوقود على النفاد والمكان غير آمن وإذا تركت المركبة في الشارع لا أحد يضمن عدم سرقتها أو حرقها. كانت الظروف التي تحيط بي تجعلني أفقد إحساسي بالنجاة

من ملابساتها، علما أني اقود المركبة ببطء لكي أحافظ على ما تبقى لي من الوقود، وما زلت أردد بخفوت بعض الآيات والأدعية والقلب يحترق شوقا للقاء الشيخ والاستماع إلى توجيهاته التي هي توجيهات المرجعية الشريفة حتماً.

الوقت بدأ يأخذ بالنفاد والصبر أوشك على الأنهيار وإذا بمؤشر الوقود يرتفع رويدا رويدا، فركت عيني وتساءلت ما الذي يجري في مركبتي ..هل كانت عيني عليها غشاوة لم تتضح فيها علامة المؤشر، أم أن هناك معجزة قد حصلت من دون أن أدري؟ الحقيقة هو غير ذلك أطلاقا، المهم عدت إلى سرعة المركبة العادية وأنا أضحك من نفسي كيف نسيت الخزان الاحتياطي الذي يعمل أتوماتيك عندما ينفذ الوقود من الخزان الرئيسي .

عبرت الجسر واستدرت نحو الطريق المؤدي إلى مقام الهادي، وإذا برجل كبير في السن يقف في وسط الشارع، وقفت وشاهدت مجموعة من الشباب خلفه يطلبون مني أن أساعدهم في نقل (مولد صغير) لإضاءة المرقد بعد أن أصبح الظلام كحال الكهوف لا أحد ينجو منه، شعرت بالنشوة وأنا أضع (المولد) داخل المركبة والرجل المسن يرفع كفه للسماء وهو يدعو بأدعية تطيب النفس والروح وتزيح

غشاوة الظلام وتشفي الغليل من الإرهاق والتعب والخوف، وكان الشباب يرددون خلفه بصوت ابتهالي روحاني بالصلاة على محمد وآل محمد، وعند عتبة المقام كانت أفواج من الشباب تهزج وتهتف بحبها لآل بيت محمد وآل محمد ثم اعتلى -الشيخ واصف الحسيني- خطبته عن مآثر أهل البيت في الدفاع عن حرم رسول الله، والحق والأمانة والإحسان في أداء العمل وكانوا قدوة للقاصي والداني فكيف بنا ونحن من سلالة أحبت هذا البيت الطاهر أن نتهاون في صد العدوان الغاشم على حرمنا وأهلنا من هذه الشراذم الضالة من الدواعش وأذناب القاعدة الذين يريدون أن يهلكوا الحرث والنسل بدون وازع ضمير أو وجدان فحق علينا الآن أن نقابل رسول الله صلى الله عليه واله وسلم ونحن نمتثل لإعلاء كلمة الدين وأن نأخذ من آل بيته الكرام قدوة لنا في تحدي هؤلاء الاشرار، لقد بلغ السيل الزبى ونحن نرى في صباح هذا اليوم الأسود رؤوس أبنائنا معلقة على الأعمدة، فماذا تنتظرون بعد هذا الإجرام؟

قال لي الرجل المسن: كلام الشيخ في الصميم والله. ثم طلب الشيخ من الجميع تشكيل لجان شعبية مسلحة وفورًا، وتقع على هذه اللجان مهمة الحفاظ على الممتلكات العامة والخاصة وتأمين حركة

الطرق في الصباح والمساء.

اندفع الشباب بحماس وكأنهم ينتظرون هذه الولادة المباركة لتخطي حالة الذعر والخوف وأخذوا بشغف ينتظرون التكليف بالواجب للذود عن الأرض والعرض، وبعد أن شاهد الشيخ هذه الجموع المتحمسة للشهادة سمعته يقول:

أريد منكم أن تكونوا مثل - أصحاب الثغور - أن لا تمنحوا للأعداء فرصة أن يلتقطوا أنفاسهم ..وبعد أيام من ذلك التبليغ الذي أعلنه الشيخ (واصف الحسيني) أمام حشود القرى، كانت اللجان الشعبية منتشرة في كل مكان، وأول عمل لها كان إعادة الطلبة إلى مقاعد الدراسة، وتشكيل حراسات ليلية بين المنازل وعلى الطرق والمرافق العامة للدولة، وأيضا ممارسة الشعائر الدينية أمام الملأ بعدما كانت تقام سرًا في المنازل، لكن المفاجأة لي عندما عدت إلى المرآب لم أكدْ أصدق ما أرى؛ فصورة (جمعة) كانت تتقدم النعش فلم أتمالك نفسي، نزلت من المركبة مهرولا نحو النعش..أخبرني أحد الشباب بأن الحارس (جمعة) حاول اعتراض سيارة مفخخة طائشة عن هدفها الإجرامي ليسقط مضرجا بدمائه الزكية وهو يردد: لبيك يامولاي ياسيد الشهداء

الإسحاقي

تشكلت في مدينة (مكيشيفة)صحوة،بعد حادثتي الطاقة الحرارية ونهب ماموجود في مشروعها من مواد احتياطية وخطف لسيارات الأهالي إلى جهات مجهولة. وكانت وسيلة الدواعش بعد تشكيل فوج الصحوات ليست المواجهة، بل تقوم على اسلوب المداهمة بواسطة العجلات المفخخة، حينها أنا كنت مختار المنطقة وأسكن في ناحية دجلة، حينها كلّفت باستلام رواتب المقاتلين من مدينة الاسحاقي المُحَرّرة حديثا من عصابات داعش والمرتزقة المتعاونين معهم.قال لي السائق (عبود مهيدي) :هل تعتقد مختارنا أنَّ الأمور على مايرام؟علينا على الأقل أن نأخذ حماية معنا، فهؤلاء بعد طردهم من الاسحاقي بعملية (يالثارات الله) لا يمكن لنا في هذه الحالة أن نثق بعدم معاودة شرّهم وغدرهم. قلت له على الفور: ومن قال لك أن هؤلاء الأشرار الطارئين على الدين من فصيلة البشر، هؤلاء وحوش بشرية ومن الضالّين لا عُرفَ لهم ولا تقاليد، ونحن إذا وضعنا حماية سوف نكون

مكشوفين، علينا التمويه وعدم إثارة نوازعهم الشريرة ثم لدينا نقاط حراسة على طول الطريق وهذه تعزز فرص نجاح مهمتنا ياعبود .

عبود خدم في الجيش ويعرف خطورة ما يعنيه وأنا أثق بنظرته الثاقبة إزاء ما يجري، لقد قال لي قبل يومين: أبلغنا أحد الأهالي عن كدس عتاد تركه الزنادقة الدواعش وانهزموا باتجاه الجزيرة، ولما وصلنا إلى المكان كانت تضاريس الأرض توحي بشيء ما داخلها فعلا وفيها أثر ظاهر للعيان، حفرنا ذات الموقع وإذا بنا نعثر على جثث المغرر بهم من ضحايا مدينة الاسحاقي،وكان عددهم ستة أشخاص، وكان واضحا عليهم التعذيب الشديد قبل نحرهم، لكن الشيء الصادم أننا لم نعثر على رؤوسهم. هذه الخسة لم نسمع عنها في أي ملّة على وجه الأرض، إنها مقصودة ومدبرة أن تدفن الجثة بلا رأس .

أحد أمراء الدواعش الذي أسرناه في معركة سابقة قال لنا: بصلافة وإجرام، هذه الرؤوس لها حساب آخر؛ إن المكافأة لا تصرف إلا بعد أستلام الرؤوس. هذا الإيغال في جريمة كهذه تهديم لبنيان الله التي نصت عليها الشرائع السماوية في إكرام الميت، هم يدفنون الجثة وينتزعون الرأس مقابل ثمن بخس. قلت له بنفحة أيمانية :

يا ولدي (عبود) لنا في (معركة الطف) أسوة حسنة، إن ما عاناه أهل بيت النبوةﷺ كان أشد وأمرّ مما نراه الآن، أنهم أحفاد بني أمية، ولم يدخل الإيمان قلوبهم لا من بعيد ولا من قريب، هم من أرادوا إرهابنا منذ ذلك التاريخ ومازالوا يحاولون ثني حُب الطاعة والولاء لآل بيت الرسول ولكن العقيدة الراسخة في قلوبنا لم تهتز، ولو بقى فيها عرقٌ واحد ينبض فهو يهتف للشهادة ويناصر دين الحق، هذا هو المبدأ الذي سرنا عليه منذ نعومة أظفارنا، هو مبدأ رسالي لا نزاع فيه وهو ثابت في الأعماق ..

كان الطريق سالكا نوع ما ولكن توجد بعض الحفر التي تركتها قذائف الأعداء ويقوم الجهد الهندسي بالتعاون مع المتطوعين من شباب الصحوات بإصلاحها. كان بحوزتي تصريح يؤكد خروج عجلتنا بواجب رسمي، لكني لم أضعه أمام (عبود) ولم أبلغه بذلك وهو لم يكن سرًا من الأسرار التي أراها مهمة حتى أخبره بها، ولكن حدسي يقول بأن الاحتياط واجب، فكمائن الدواعش قد تتسلل بعد خسارتها المواجهة إلى التنكر والقيام بدور الصحوات، بينما نحن كنا نرتدي زي عرب الصحراء، وحملت معي ثلاث خرفان في حوض سيارة (البيك آب) للتمويه. وعند استلامنا المبلغ من ناحية

الاسحاقي، رجعنا بنشوة متفائلة بنسبة الأمان التي بدأت تتحقق للناحية، بعد أن عاثت زمر الدواعش ومن لفَّ لفهم بالأرض فسادًا ودمارًا بحيث لم يسَلم الحجر والبشر من جرمهم واستكبارهم، تذكرت بالحال إن الخرفان لم نعلفها خلال هذه الرحلة وإن كانت قصيرة من (المكيشيفة) إلى (الاسحاقي) ولكن الحيوان لن يتحمل الجوع والعطش .

كانت (العلوة) شبه مهجورة سوى من بعض الأنفار أخذنا حزمة (برسيم) وإناء كبير من الماء وتوقفنا بعض الوقت لكي تأكل الخرفان و ترتوي، ومن ثم انحدرنا إلى الطريق العام. وهنا حصل مالم يكن بالحسبان،إذ يبدو أن الشياطين الدواعش يتركون خلايا نائمة بين الناس. قال لي عبود:السيطرة التي أمامنا مندسة، إنها نصبت من أجلنا، لقد لاحظت أحد أفراد (العلوة) يراقب السيارة ونحن نطعم الخرفان، وعندما لمحته اختفى من المكان على عجل، لذلك سأغير طبيعة الاتجاه ..ماذا تقول مختارنا؟ بينما أنا كنت في الحقيقة أردد هذه الآية الكريمة: «وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ». بهذه الأثناء كان صوت الرصاص يلعلع خلف السيارة رغم أنها منطلقة بأقصى سرعة. السيارة أخذت

تفقد إطاراتها واحدا تلو الآخر، وأنا مزموم الوذ بشفاعة أدعية الأئمة الأطهار لإنقاذنا من هذا الموقف. كان الدم يفور من ساعد (عبود) وهو يقول بثبات وعزيمة :أني أتحداهم.

الخرفان في الخلف كانت قد هجعت ولم أعد أسمع لها (ثؤاج). عبود كان قريباً من الشارع ونحن في أرض ترابية ليست سهلة بعد تغير أتجاه العودة، وبما أنه محترف في سياقته لم تغرز السيارة كما كانوا الدواعش الذين لاحقونا يتوقعون ذلك، ورغم ما عاناه من الإصابة لكنه كان مدركاً لحقيقة الخطر المُحدِق بنا، النقاط المتمركزة على الطريق حين سمعت أصوات الرصاص هرعت لمكان الحادث وقبل أن تشتبك معهم، ولّت غمامتهم هاربة من أمام رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه. بعض نقاط الحراسة التي استقبلتنا نقلوا (عبود) على الفور إلى المستشفى، بينما كان كابوس الثقوب التي شوهت بدن السيارة يلقي بظلاله على الخراف التي بقيت منزوية وخائفة في ركن الحوض، انها تعرضت هي الأخرى لإصابات متفرقة .قال أحد بواسل الصحوات :«يالهم من أشرار حتى الحيوان لا يسلم من شرهم». وقال آخر: «من يصدق ان من كان في هذه السيارة قد نجى؟» .

آمرلي

لا أدري؛ كيف وصلت البيت ...؟ حيث أطلقت علينا في ذلك اليوم أكثر من ٥٠٠ قذيفة،وأغلبها كانت تأتي من خلف الجبل. حتى المستشفى لم يسلم من ذلك القصف. نحن داخل (آمرلي) شبه محاصرين، ولا منفذ لنا. والدواعش يراقبون حركة المارة، وكل من يخرج الى الشارع فهو مستهدف. زوجة أخي ضاعف الخوف من تقلصات أوجاعها، فهي حامل في شهرها التاسع، كلما تسقط قذيفة تزداد معها صرخات المخاض .

أبي وقبل أن يفرش سجادته للصلاة، قال لي :يا بني الأيام العصيبة ابتلاء وان الله يمتحن عبده ويختبره فيها، نحن إن تمسكنا بالله وأودعنا أنفسنا إليه، فلا تضيع عنده الودائع .أحسست في هذه العبارة قوة تشع في نفسي، الظلام دامس ويخيم على كل المنطقة، لأن النور يمثل هدفا للأعداء ولذا فان أغلب البيوت كانت تعيش في ظلام دامس، بحيث عندما تسللت من خطوط الدفاع الأمامية ونحن نلبي

واجب الجهاد عن المدينة لم تكن هي رغبتي بل أشار لي آمر الفصيل (سيد قنبر سيد ساقي) أن أُخلي الجريح (جواد هاشم)،حملته بلا تردد وعيني مفتوحة على الساتر.قال لي آمر الفصيل بهمس :أوصيك بالحذر، الحذر، أعرف همتك وحرصك وإلتزامك بالواجب، وتذكر ان إحياء النفس كأنما أحياء الناس جميعا.توكل على الله.

كانت منحدرات الأرض غير مستوية وبعض ظلالنا في الليل كانت تبدو غير مألوفة، أو أن الاحساس بالحذر يجلب لنا مثل هذا الظن. لا أشعر إني أحمل جريحا، نجاته وانقاذه تدفعني إلى التسابق مع الريح، سمعته يقول:(عذبتك يامنير)، استغربت بالحال، إنه عرفني بالاسم، لم (يشغلني) كثيرا هذا الموضوع، المهم لديَّ أن أتحاشى القصف المعادي الذي يتقاطر علينا من كل الجهات. في اللحظات المتوجسة قلت له: جواد تماسك نحن في رعاية الله وأهل بيت النبوة يرد عليَّ بصعوبة بالغة: حفظك الباري ويرجع يغط في النوم. وسيلتي الوحيدة كيف أشخص تقلبات التضاريس وأمشي في الأماكن التي لا تثير رصد الأعداء.

حين تجاوزت بيوت الحجر المظلمة تماما كان رأسه قد تدلى ولا يمكنني أن أقف أو أنزله من على ظهري ولا حتى أستطيع الكلام،

كنت اتلصص على أنفاسه وأستجير بأدعية آل البيت طالبا الشفاعة والنجاة من هذا البلاء. وأنا أحث الخطى، واجهت أسلاك كهربائية متروكة وقطع من سيارات قديمة وأكداس من الإطارات المستهلكة، عرفت أني في حوض الحي الصناعي، وبيني وبين المستشفى حوالي ٣ كم، تنفست الصعداء قليلا عندما عرفت أني أمشي في الطريق الصحيح، ناداني بخفوت: يامنير (آمرلي) أمانة بأعناقكم، أتركني هنا وعُدْ إلى الساتر، أنهم أحوج إليك مني. قلت بيني وبين نفسي: الحمد الله فيه نفس ..ثم أردفت: هم أيضا يحتاجون إليك ياجواد، الله معنا – أصبر– يا أخي.

وعند عودة القصف في تلك الأثناء لذتُ وراء تلة صغيرة. انتظرت قليلا حتى يهدأ القصف، ثم شبّت نار كبيرة خلفنا أضاءت كل حوض الحي الصناعي. حذرت الخروج من مخبئي في تلك الساعة.كانت النار مستعرة ودخانها زاكم تنبعث منه رائحة الإطارات المحترقة. في مثل هذه الظروف الصعبة لابد من اتخاذ قرار، كانت أنفاس (جواد) ثقيلة، أحس لها صفيرا يشبه الشخير فتوجست خيفة. حاولت أن أعطس من شدة اختلاط الدخان والنار في الهواء، لكني حاولت كتمها بشق الأنفس، وأنا أمشي ببطء أريد أن اجتاز نيران

الدخان وإذا بي أمام ثلاث رجال ملثمين خرجوا من ظلال الدخان والنار والليل .جمدت في مكاني، وقبل أن أفكر بالخطوة التالية وإذا بأحدهم يدنو مني فيقول:

والنعم منك يامنير كفيت ووفيت. نحن من اللجان الشعبية (حماية المستشفى)، كنا نراقبك ونبحث عن فرصة لكي نساعدك، سوف نقوم بالواجب. قلت لهم: انا مكلف بإيصاله للمستشفى. فتح اللثام وإذا به جاري (عبدالله) الموظف معي في مديرية إسالة الماء، في زحمة الموقف المتأزم تبادلنا القبلات، وهمس بإذني يحتاجونك في البيت لأمرٍ مُلح جدا دون أن يخبرني بشيء آخر.وبعد أن حملوا عني الجريح (جواد) وذهبوا به إلى المستشفى وظل القلق يساورني بين (جواد) وأهلي والساتر و(محمود)، أصوات الأنفجارات كم هي مرعبة في هذا الليل الحالك إلا أن الصور في ذهني أكثر وقعًا منها، أخي (محمود) في الساتر الشمالي وأنا في الساتر الجنوبي. كان عبدالله قد نبهني أن لا أبقى في المكان..صورة أخي (محمود) تلبسني منها شيئا مرعبا جسده معفرا بدمائه الطاهرة وهو يصرخ فداء لمنحرك سيدي، سيد شباب أهل الجنة،وهؤلاء الجلادين سماسرة البغدادي والظواهري يستلذون بتعذيبه وهو يهتف بريح الجنة على درب الشهداء، لبيك ياسيدي يابن

فاطمة الزهراء، كلما حاولوا انتزاع الإيمان من قلبه يقول لهم :(نحن ابناء الشهادة ..نحن أبناء من قال (من لم يلحق بي لم يدرك الفتح).

رفعت رأسي إلى السماء وأنا لا أدري كيف وصلت البيت. أمي كانت تدير شؤون المخاض مع زوجة أخي محمود في الغرفة المجاورة، وأبي ينتظر عودته عند الباب وقذائف الاعداء الدواعش التي لا ترحم تتساقط كالنبال هنا وهناك .. وإذا بعبد الله يدخل بالجريح (جواد) إلى البيت وهو يقول:لم يعد هناك مكان آمن من هؤلاء الوحوش .أبي أول ماشاهده قال هذا (جواد بن الشيخ هاشم) بائع (السبح) مقابل الحسينية، كانت عيناه مفتوحتان وهو يبتسم. أبي أغمض عيناه ونحن في وجوم تام عندما أخبرتنا أمي بولادة بنت أسمها آمرلي.

السيافية

كنت أظنُّ أن الحُزن والألم يفقدان المرئ الشغف إلى أن فقدتُ أخي الأكبر الجندي الذي قُتل مغدوراً في طريق عودته من إجازته في قضاء المحمودية فلم يصل الدواء الذي إشتراه لولده الرضيع إذ إنفجرت العبوة الناسفة التي وضعها الارهابيون فأودت بحياته، ولم يمضي وقت طويل حتى لحق به أخي الثاني الطالب في كلية الحقوق – جامعة بغداد، الذي خطفته زمر الدواعش وإختفى وإختفت معه أخباره. وكل هذا الحزن والألم لم يمنعا شدة شغفي بصيانة الأدوات الكهربائية التي تطوّرَ مع الوقت ليصبح حرفةً إلى درجةٍ أن صاحب محل الكهرباء الأسطى (عدنان بحر) كان يستعين بي في بعض الأمور التي تصعب عليه فكنت اقوم بالواجب من دون أن أطلب أجرة مقابل ذلك. وفي أحد الأيام قال لي يا إبراهيم: أود منك أن تشاركني في موضوع خاص، فأنت تستحق مني كل الثناء .قلت له وما هو الموضوع الخاص أسطى عدنان؟ قال: هو مكسب لي ولك، أنت انسان أمين

ومخلص وذكي وأنا كبرت في السن وأحتاج من يساعدني في العمل. في الحقيقة أنا سررت بالفكرة ومع ذلك قلت له: امهلني كم يوم أسطى حتى أردَّ عليك.

المحل لم يبعد كثيرا عن دارنا، والعمل مع هذا الاسطى يتمناه كل شاب مثلي فهو من النوع الذي يعطي الأجير حَقّه قبل أن يجف عرقه، ويتمتع بسمعة طيبة بين الناس، والأهم من هذا كلّه أن أبويَّ لم يعارضا العمل مع هذا الرجل. وحين أبلغت الأسطة موافقتي كان مسرورًا جدًا، فأخرج بعض الأوراق النقدية وقال لي :هذه بشارتك، لا دخل لها بالأجرة. قلت له: يا أسطى لم أتعلم في حياتي أن أقبض ثمناً من دون عمل، يكفيني فخرا كلامك الطيب. طبعا لم يقتنع بكلامي رغم انشراحه وحديثه عن بعض مشاريع التجمعات السكانية حديثة البناء التي كُلف بتأسيس الكهرباء لبيوتها، كانت لديَّ معضلة إن طلب مني العمل فيها، فهذه التجمعات تقع على الشارع الحولي الذي يحيط بالمحمودية والعمل في هذه الدور يكون دائما على وفق ضوابط العقد،أي أن يكون مقيدا ومشروطا وأنا من غير الممكن أن أترك أبوايَّ النهار كلّه من دون أن أعرف احتياجاتهم حتى لو كانت الأجور مغرية، ثم تطرق إلى صيانة المولدات المنزلية، وأنه في نيته فتح ورشة

متنقلة في المنطقة والمناطق المجاورة فهي تخفف العبء عن الناس ثم قال بانكسار: هل تدري يا بُنَيَّ إنَّ الناس عاشت الأمرين، فقد فتك الحصار قديما بنا جوعا ومرضا، والآن نلاحظ القتل على الهوية. وكل واحد منا يشعر بأن روحه فوق راحته لا يدري بأي لحظة يموت. قلت له وأنا مبتسم :هل تدري يا أسطى أن من يسمع كلامك عن المشاريع يشعر بأنك لا تفكر في الناس بقدر تفكيرك بالربح من هذه الاوضاع الشاذة . رد عليَّ بثبات ووقار:

يا بني إن من يفكر بنفسه هو أناني والدين منه براء، فالناس صنفان أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق ..ألم يقل ذلك امامنا علي بن أبي طالب عليه السلام.

كان الجدار الذي يقابلنا مكتوب عليه بالخط الأحمر (الدولة قادمة) حاولت أن أشطبه بالنفط الأبيض، مسكني الأسطى بحدة وقال وهو يزّم شفتيه بانفعال: لسنا محتاجين خسارتك، قادمة ..ذاهبة، هذه فتنة والفتنة لا مذهب لها ولا دين هي تحرق نفسها بنفسها لا تلوث نفسك بهذه الشعارات الضالة. في هذه اللحظات حضر رادود حسيني اسمه (ملّه زاهر)، وهو دائما يتردد على الأسطى يقرأ بعض أبيات الرثاء عن آل البيت الأطهار. وبعد أن أنصرف سادت فترة

صمت بيننا لم تمهلنا طويلا وإذا بسيارة فارهة تقف أمام الأسطى لينزل منها رجلٌ يبدو على مظهره أنه من رجال الاعمال فطلب من الأسطى أن يأتي معه لرؤية الأبنية الحديثة في مشروع الإسكان. التفت إليَّ الأسطى و طلب مني أن أبقى بالمحل لحين عودته. أومأت له برأسي بالموافقة وبقيت منزعجا لفترة طويلة من العبارة فكلما أدير عيني لجهة فهذه العبارة يرتسم ظلالها أمام عيني. استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم.

وفي هذه الأثناء جاءني اتصال من الأسطى يبلغني بالذهاب مع رجل من أقربائه يسكن في الحي المحاذي من منطقة السيافية لتصليح بعض النقاط الكهربائية العاطلة في منزله، وفعلا حين أتى الرجل ذهبت معه. وفي الطريق، كانت الكثير من الشعارات التي تمجد الدولة اللا إسلامية مكتوبة على الحيطان قائلا لي باستغراب: أنت شاب وفي مقتبل العمر؛ ماذا ترى في هذه الشعارات؟ أجبته وعلى الفور وأنا شبه مستفز من هذا السؤال : هذه الشعارات تفرح الأعداء وتخدمهم. ابتسم بوجهي، وانشرح وقال بأدب، هذا هو الوعي الحقيقي، عندما يفطن الشباب لما يحاك ضد دينهم واسلامهم من تشويه وافتراء واباطيل تريد أن تعزل الظفر عن اللحم، عليهم

واجب شرعي وإنساني وأخلاقي في توعية الناس المضلّلة، أنَّ أغلب هذه الناس كالعميان يحتاجون إلى من يبعدهم عن جادة الظلام، ثم تحدث لي عن أفعال الدواعش الظلامين الذين يتسللون من وراء مفارز رجال الأمن ويفخخون الجوامع والمساجد والحسينيات.

وحينما عدت للمحل قبل غياب الشمس كانت أفكار الرجل في بالي وحديثه الشائق عن التضليل تأخذ تأثيرها النفسي والذهني وتحرك حواسي وإذا بيّ أجد نفسي بلا شعور أمسح العبارة التي أمامي بالنفط الأبيض ومع ذلك لم أشعر بالارتياح لقد اتصلت عدة مرات على الأسطى ولم يأتي الرد ..أغلقت المحل وعدت إلى البيت مهموما، لم أنم تلك الليلة، وكان الأرق والتعب والوساوس يتغلغل من كل جانب إلى رأسي، صليت صلاة الليل لعلي أجد فيها الشفاء لحالة القلق ووضعت إلى جانب وسادتي القرآن الكريم ..كنت مغلق الفم لم أنبس ببنت شفه أخشى أن ينتقل الذعر إلى أبواي ..

وفي الصباح الباكر بعد الأذان بقليل فجعنا بصوت (الملّة زاهر) من حسينية السيافية وهو ينعى استشهاد الأسطى (عدنان بحر) على يد الغدر والضلالة والبهتان .

سبايا

كانت العملية التي بلغنا فيها آمر الفصيل هي وجود بعض السبايا في قضاء (البعّاج)، وفي النيّة نقلهم إلى مدينة الرقة السورية، ولكن ليس معلوما وقت ترحيلهم، أي أنه مرتبط بالعمليات الأمنية. الوضع يحتاج إلى السرعة والدقة قبل فوات الأوان، وتحديد المحلة والزقاق والبيت المقصود، ولكن ما فاجأنا به أحد رجال استخباراتنا وهو من القضاء طبعا بأن عدد السبايا يقدر بأكثر من (خمسين) فتاة موزعة على مناطق مختلفة من البعاج وليس منطقة واحدة، أي أنها معركة تحرير، وبكل تأكيد سوف تكون هناك ضحايا بين السبايا. كل الفصائل المحتشدة تريد أن تنفذ الواجب، وهي متحفزة لخلاص هؤلاء النسوة من براثن الاشرار الداعشيين.

رجل الاستخبارات كان يطمئن الجميع بأن الساعات القادمة سوف تزودنا المجاميع الخاصة في الداخل بمعلومات وافية عن مكان تواجد السبايا، فالدواعش وإن ظهروا شراستهم وقوتهم

بعمليات جبانة مثل المفخخات والنحر والجلد وحرق الأسرى إلا أنهم يفتقدون إلى قيادة محنكة في القتال، يعتمدون على بث الرعب والتخويف و إرهاب المساكين، وهذه وسائل الضعفاء المهزوزين من الداخل ..

أنا لم أستأذن آمر الفصيل، ولكن كيف حصل مني ذلك؟ والكل يشهد بالتزامي الشديد بالمحافظة على الأنضباط العالي في احترام النظام من دون ضجر أو أهمال أو تكاسل. قبل يومين سألني الآمر -علي محمد فارس- وقال لي بالحرف الواحد: يا معين جاد الله، أنت لم تكن على بعضك هذه الأيام، فإذا ترى نفسك محتاجة إلى إجازة بإمكانك أن تذهب في أي وقت تشاء. قلت في نفسي: الحقيقة؛ لا أحد يمكن أن يفكر بمثل هذه الظروف بأهله، فالمقاتلين كلهم مثلي متشوقين لطرد هذا الباغي المتعالي على تعاليم الإسلام والذي تمادى بكل شيء لقد طعن المذاهب والعقائد بالصميم من أجل التفرقة، ومازال على غيه واستهتاره وكلنا نسعى باستئصال هذه الجرثومة من جسد وطننا الجريح بينما (علي) صمت قليلا عندما سقطت قذيفة بين التلال القريبة وجاء بعدها الخبر عبر الجهاز إنها لم تحدث شيء .

ابتسم ابتسامة خفيفة بوجهي وأردف قائلا :

أعرفك يا معين كم أنت مواظب على الصلاة في ضريح ريحانة رسول الله... ونحن تأخرنا كثيرا في هذه الواجبات ولم تمهل أحدنا أن يتمتع بإجازة ومع ذلك أنت لك مطلق الحرية يامعين ...

أنا منذ أن سمعت بالسبايا لم يهدأ لي بال، فهنَّ من سنجار والتي أتصلت بي تقول أنها من سنجار ولكن كيف عرفت رقمي؟ أن هؤلاء التافهين يحاولون أن يزرعوا كميناً لنا، ولما عدت الاتصال بها قالت لا تتصل أنت؟ أنا من يتصل أريد شهامة العربي ونخوته فيك وأغلقت الخط، وقبل أن أورط أحد بمهمتي أخذت مكانا منعزلا وبعيدا عن الفصيل، كنت أرى السيارات الحوضية للدواعش وهي تجوب المدينة وتعلن انتصاراتها الوهمية عبر مكبرات الصوت على القوات الأمنية، ياله من افتراء كاذب، انهم محاصرون من كل الجهات فمن أين أتت انتصاراتكم؟ كل ذلك لا يهمني، المهم لديَّ هو أن أعرف مصدر صوت (السبية) من أي مكان آت...

ثم لمتُ نفسي لماذا لا أخبر آمر الفصيل بذلك؟ أو أي شخص من أصدقائي (حسن) و(رحمن) و(كريم)و(جعفر) و(محسن).إني أغامر بهذا الخروج بلا مبرر، وقد تكون هذه المكالمة فريَّة؟ ولكن كيف تكون فرية وآمر الفصيل أبلغ عن وجود (سبايا) في القضاء

كما أكد ذلك رجل الاستخبارات وهو من الشخصيات الموثوقة لدينا، كنتُ قريباً جدا من أطراف المدينة وأشاهد حركة الدواعش التي تطلق عيارات نارية عشوائية بكل الاتجاهات، لكن لم يكن معي سوى سلاحي وأنا أردِّدُ بيني وبين نفسي شيئا مما حفظته من الأدعية المباركة. وعلى الرغم من أن الظلام مختلط برائحة البارود الزاكم إلا أنني قلت لنفسي أرجع من حيث أتيت يا (معين)، ولا تغامر في أشياء تضر فيها غيرك.

تقريبا شعرت بالذنب وحاولت العودة وإذا بالهاتف يرن هو ذات الرقم وذات الصوت، قالت: (أنا خرجت من البيت وبالقرب من مضخة الماء المجاور لمستوصف مهجور).ثم أغلق الخط، كيف لي أن أهتدي لهذا المكان؟

بدأت أشك في كلامها، هل بإمكان (السبية)أن تخرج بمفردها؟ هذا محال وألف محال،رفعت رأسي إلى السماء وناديت الله بصوت خفيض أن ينقذني من هذه الورطة، أنا ارتكبت أثما حينما أخذتني المبالغة وكبرت في نفسي قدرتي على الإنقاذ، الأمر لم يكن بهذه السهولة اطلاقا، إن الدواعش لم يتوقف رميهم بإتجاه قطعاتنا وقطعاتنا أيضا تتبادل معهم الرمي وأنا محاط بالتوجس والحذر من تخاطف النيران.

وهنا حصلت المفاجأة، أرسلت الفتاة بعد أن شعرت بتأخري- الموقع - وذكرت إذا كنت جاداً فهذا مكاني بالضبط. وبعد أن ضبطت المكان كانت المسافة أقل من نصف الميل عن تواجدي، انحدرت مع الاتجاه ببطء شديد وكنت أحسب حساباً لكل خطوة وفي الوقت نفسه كنت حذرا من أن يكون ذلك كمين .. صادفني تلاً من القمامة، اختفيت وراءه برهة من الوقت حيث أرتشفت قليلا من الماء، ثم بدأت ألتفت يمينا وشمالا، كان كلّ همي أن أتأكد من بلاغ (السبية)، أن كان خدعة أو حقيقة، وفي هذه الاثناء سقطت أو عثرت لا أدري ولكن (عمود معقوف) وأظن انه مهمل ومتروك قد أحدث رنينا صاخبا.

هلعت من مكاني لأغير أتجاهي وفجأة صار (شبح)أمامي واختنقت العبارة في الحنجرة،جمدت وتحددت وإذا بي أرى آمر الفصيل (علي محمد فارس) قد اقترب مني وهو يربت على ظهري، قال لي :تابعتك، تعتقد لا أدري ماذا تنوي) لم أتكلم، سألني إن أصبت بشيء نتيجة السقوط أشرت له بيدي لا شيء، رن هاتفي وانقطع، كانت هي المتصلة، قال لي علي :انتظر.

لم أبّهْ لكلامه واندفعت بضع خطوات فكنت وجها لوجه مع

الصبية، قالت: عندما رأيتكما خفت وارتجفت ولكن تشجعت واتصلت وعندما رأيتك رفعت الهاتف عرفت أنّكَ من كنت أنتخي به، فإذا أنت من الدواعش أو العربي المنقذ لك الخيار، وفي هذه الاثناء تدخل (علي) وقال: أين البيت الذي تسكنين فيه؟ قالت و الذعر يتلبسها: أنا لا أعرف شيئا عن هذه المنطقة، أنا من سنجار وينوون ترحيلنا إلى الرقة. قلت لعلي: يبدو فعلا إنها من السبايا.

عدنا بها أنا و(علي) إلى مقر الفصيل وكان كل شيء يختلط ببعضه الظلام والعواصف الرملية لا تهدأ. وحين قابلها رجل المخابرات سمع منها التفاصيل، صحيح هي تجهل المنطقة ولم تتعرف عليها من قبل غير أن العلامات التي ذكرتها أعطت الكثير من الدلالة ..

كنت أقوم على ضيافتها بينما آمر الفصيل ومجموعة الشباب تحركوا مع رجل المخابرات في ذلك الليل البهيم كالبرق نحو الهدف، يبدو أن العواصف لها القدرة على تأجيل النهار باندفاع حركة العواصف المدلهمة، كان سؤالي الوحيد كيف حصلتِ على الهاتف والسبايا لا يسمحون لهن عبور الحجرة؟ قالت بكل ثقة، كان الامير مفتونا بي وبأخرى من السبايا .. وقال لنا أنتما البنتان سوف تكونان لي وأكد بأنه سوف يثبت حسن نيته ولم يمضِ وقت طويل حتى جلب

لنا هاتفين واحد لي والثاني للبنت الأخرى وقال: اتصلا بمعارفكما ان شئتما وانصرف عنا.

قبل غزونا من عصابات داعش كنت قد دخلت دورات على الحاسوب وأجيد استخدام الهواتف بشكل جيد، كانت نفسيتي متعبة وليس لي أحد يمكن الاتصال به فلعبت لعبة الحظ مع الأرقام فخرجت لي ومن دون أن أعرف أنك فعلا سوف تنقذني أو لا فحياتي كانت مهدورة في كل الحالات، ولكن هذا اليأس قد عاد لي بصيص الأمل.

لقد فتح الابطال ثغرة أمان للبيوت التي فيها السبايا وتحركت أجنحة من القوات الأمنية شمالا ويمينا، فحدثت اضطرابات غير عادية في صفوف الدواعش، فكلما تزحف القوات نحوهم تضيق الأرض بالدواعش ذرعا. جرح (علي) ورفض الإخلاء، احتدم القتال حتى بالسلاح الأبيض. (علي) أبلغ الجميع أما النصر أو الشهادة، (علي) أبى على نفسه إلا أن يعود معي ولكن هذه المرّة عاد يرفرف كحمامة بيضاء، وبرغم الجو الملتهب والقاتم كعادته يرفرف في فضاء تزغرد فيه السبايا وهن يهتفن بحياة الشهيد .

أرض الكنيسة

مدينة (طيسفون)، هي قرية على ضفاف دجلة عامرة بالنخيل من قرى المدائن (سلمان باك حاليا) عشقتها منذ ولدت فيها، وهي تجاور القرية كنيسة (كوخي) التي تُعد أول كنيسة في الشرق، فعندما عينت بمديرية الآثار بعد الحرب العراقية – الإيرانية نسّبتُ حارسا على هذه الكنيسة الأثرية التي تحيط بها مايقارب أكثر من (٢٠) مقبرة لرؤساء الكنائس (الكاثوليك)، فلم تكد تنقطع عن هذه الكنيسة الزيارات السياحية من كل أنحاء العالم، وبحكم جذوري الفلاحية حرصت على زراعة محيط الكنيسة والمقبرة معا بأنواع مختلفة من المحاصيل، لدرجة أننا في البيت كنا لا نحتاج إلى السوق إلا لشراء السمك أو اللحم.

ويوما بعد يوم كانت المحاصيل تزداد ويمكن أن تغطي سوق القرية، وكان أغلب التجار يزوروني من أجل ضمان تسويق تلك المحاصيل، فكان كلامي واحداً، إن هذه الأرض ليست ملكي،

ولم يكن لي أمرٌ بمقايضاتها أو التصرف بمحاصيلها، ولكن هؤلاء التجار الصغار لم يتركوني وشأني إذ استمرت مضايقاتهم لي، فنقلت هذه المعاناة لشيخ الجامع حمادي الحسيني، الذي أبدى نصحه وتوجيهه بأن أبلغ مديريتي التي أعمل فيها لكي لا يكون تصرفي خارج سياقات الدائرة التي انتسب لها، وهذا ماكان فخرجت لجنة من المديرية وقررت إتلاف كل المحاصيل لأن المنطقة أثرية ولا تجوز الزراعة في مكانات فيها أرث وطني، وتحملت أنا وزر هذا الخطأ غير المقصود مني وأخذت حقي بعقوبتي (توبيخ وإنذار) وشكرت الله أنهم لم يرفضوني، ولكن بعد الاحتلال الامريكي أختلط الحابل بالنابل وأصبحت القلاقل تنتشر هنا وهناك والإنفلات الأمني آخذا بالتوسع.

أحد الأصدقاء وأسمه (عريف ناصر) قال لي يا(سعدون عذيب)،أولادك كبروا ويحتاجون إلى مصاريف، وحال البلد لا هي شرق ولا هي غرب دعنا أن نعيد زراعة الأرض وقال بحزم :أنا سأتكلف بموضوع الزراعة. بالنسبة لي لم يحتاج الموضوع إلى تفكير فالجوع وصل لحد العظم والقرية كلها تعيش المعاناة نفسها، وافقت على عرض صديقي (عريف) وبدت بالزراعة، وفعلا بدأ النبات ينمو بشكل سريع وأنتشر الخضار من جديد حول الكنيسة والمقبرة

وحولنا أنا وأولادي ميمون وجواد وكاظم وحسن.

زارنا ذات يوم الشيخ حمادي الحسني وأثنى على مشروعنا البسيط.

سألني مستفسرا : إلى أين تذهبون بالمحاصيل بعد جنيها؟

قلت له وأنا مصمم طبعا: ليس للبيع شيخنا الجليل، فالأرض ليس ملكنا.

قال بلطف: دعك من عائدية الأرض الآن، وفكر بجوع الناس، فمادمت قادرا على سدِّ رمق المحتاج هو هذا الأجر ياسعدون.

وعلى إثر هذه النصيحة قمنا أنا وصديقي (عريف) بارسال بعض المحاصيل للجامع لكي يستفيد من هو بأمس الحاجة. وفي أحد الأيام وإذا بنا نسمع صوت انفجار هزَّ أركان القرية، كان هذا يوما أسودًا حينما وجدنا ذلك الأنفجار قد حصل في مخزن الكنيسة التي تحتوي على تحفيات نادرة أغلبها اختلط مع البارود وصار رمادا، منها كلمات (لوقا) المنحوتة على الحجر وتماثيل صغيرة لوجه العذراء وابنها الفادي. كان ذلك مثابة إنذار شؤم ونحس يخطف القرية من وداعتها، وجمالها، وأمنها، واستقرارها. وتوالت الأنفجارات بعد ذلك منها في المستوصف الصحي، حضيرة بيع المواشي، وكيل المواد الغذائية نوري الشعلأن، مقهى العتابي، محل ندافة ابو دشير، برامة أبو

علي، مركز شرطة القرية، مدرسة طيسفون الوحيدة، وبعض بيوت منتسبي قوى الأمن، والشهداء صار لا يحصى عددهم، حتى جامع (الشيخ حمادي) الذي كان عادة يجري فيه تشيع الشهداء لم يسلم من التفجير.

قرر الشيخ حمادي أن نشتري السلاح بأي ثمن وإلا فان ماكنة هؤلاء المجرمين سوف تحصدنا واحدا بعد الآخر، أخذنا نشتري السلاح من القرى المجاورة وشكلنا قوة من الشباب لا يستهان بها، ولكن القوة الغاشمة كانت أكثر منا عدة وعددًا، دخلوا علينا بحجة البحث عن السلاح، فكان كل شخص يعثرون بحوزته على قطعة من السلاح يكبرون بصوت عال ويحكم عليه بالنحر لا بالرصاص في المكان نفسه، وبعد ذلك أخذوا يطاردون الشيخ حمادي في كل مكان وكان هو شغلهم الشاغل، لأن جواسيسهم أبلغوهم بأن الشيخ هو من أفتى بمحاربتهم، ثم اخذت سياراتهم تجوب الشوارع وعلى بعضها مكبرات الصوت، وهي تلقي شعاراتها واناشيدها الداعشية جهارا أمام الملأ وتتوعد من يرفع السلاح بوجوههم بالويل والثبور. كان انين الثكالى والأيتام مؤلماً، وقد بلغ السيل الزبى ولا رادع لهؤلاء الوحوش لوثة المجتمع وهي تتفاخر يوميا بالقتل المجاني الممنهج بدون وازع للضمير،إذ لا كبير ولا صغير ولا شاب ولا امرأة فالكل

تحت جبروت طائش اسمه داعش .

قال الشيخ: أن تنصروا الله ينصركم، هؤلاء طعنوا في خاصرة الإسلام فلا دين لهم، عليكم بالجهاد في سبيل الله. كنا نحن المتطوعين نعد على عدد الأصابع والدواعش قد اوغلوا في النفوس الضعيفة والذليلة تارة بطشا وتنكيلا و تارة أخرى بالترغيب والترهيب وبدأوا يتناسلون .كان الكتمان في عملنا الخطوة الأولى وخصوصا بعد الإعلأن عن طلب (رأس) الشيخ حيًا أو ميتًا، كنت أقول لأولادي ان الأمام الحسين عليه السلام، قدوة لنا عندما تكالب عليه الأعداء في واقعة الطف نادى على لسانه الشاعر (ان كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني)، اليوم يومكم أما تكونوا أبناء بررة وأما عبيداً تستحي منكم الأبناء والأحفاد، وانخرطوا في ساحات الوغى، بشكيمة وعزم لا يلين، انخرطوا طالبين الثأر من عصابات مارقة استهترت في غيها وكفرها. كل واحد منهم كان يستمد شجاعته من تاريخ دينه الحنيف ومن رسوله الكريم والصحابة والأئمة الطاهرين.

كانوا بيارق للحق على الباطل يد تقاتل ويد تعين الضعيف والمحتاج ولا يهابون الموت، فالموت حق سواء كان عاجلا أم آجلا المهم لديهم قضية وعليهم أن يكتبوا في صفحتها. وحين سرق الدواعش محتويات الكنيسة لم يهدأ لهم بال، بدأوا يختلسون الخطى

وراء الآثمين حتى اهتدوا لمكان خزائن الحسبة التي تقع خلف الجبل، فتربصوا لهم طوال اسبوع كامل، وللحق أقول لم يكونوا فقط أولادي بل تبعتهم ثلة من المؤمنين المخلصين العامرة صدورهم بالإيمان، وكان الدواعش آمنين عندما انقضوا عليهم في ليلة عاصفة بالغضب الرجولي لينتزعوا منهم تراث الوطن، فجن جنونهم بعد تلك الليلة والشر يقدح من عيونهم، ومثل كل مرة كانوا يجدون الضحية من الأبرياء العزل ليمثلوا بهم في وضح النهار.

وفي أحد الأيام قال لي الشيخ حمادي وهو يواسيني بفقدي الرابع من أولادي :لا تحسبهم أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. قلت له بصبر جميل:أنهم ياشيخنا فتية آمنوا بربهم. رد عليَّ وهو يتوضأ ليصلي :والنعم بالله ..المؤمنون الذين إذا أصابتهم قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون.

وعندما دخلت القوات الأمنية الظافرة كان أول شهيد تضرج دماؤه عتبة كنيسة (كوخي) هو الشيخ حمادي الحسني.

لا غفران للزور

منطقة (سحل) التابعة لقضاء (راوة) والتي تبعد حوالي ستة كيلو مترات عن القضاء هي بلدتي وقد تجاوز عمري العقد السابع، اسمي (مثنى)، ومنطقتنا زراعية بامتياز بحيث كل المناطق المجاورة تتسوق من محاصيل منطقتنا لرخصها وجودتها ووفرتها،وكانت مزارعنا تأخذ بالاتساع والازدهار وصارت واحدة من الواحات السياحية التي يأمُّها المصطافون في أيام الربيع مما ساعد على ازدهار وضع المنطقة الاقتصادي، فكانت المنطقة خالية من مدرسة ابتدائية أو مركز شرطة، أو دائرة رسمية سوى دائرة للكمارك على أطراف المنطقة لكونها حدودية، وكنا في أثناء فترة الحصار نتعرض للسرقات باستمرار فاضطررنا إلى تشكيل حشد عشائري لمقارعة اللصوص بالاشتراك مع عدة مناطق منها (عانة)، و(القائم)، و(راوة)، و(الجزيرة) من أجل القضاء على هذه الظاهرة التي عرفنا نواياها بأنها لم تقوم بالسرقة من أجل السرقة وإنما لتهريب محاصيلنا الزراعية وارسالها إلى ما وراء الحدود. قلت أن

منطقتنا لاتوجد فيها مدرسة ابتدائية ولكن بفضل أهلها أصبحت منطقتنا من المناطق التي تعزز فيها التعليم للبنات والذكور وصار لدينا روضة أطفال ومتنزه كبير وملعب متواضع وجامع ومع كل هذه الأشياء البسيطة؛ المنطقة أخذت تتحسن أوضاعها في كل المجالات رغم الحصار القاتل الذي يعصف بالعراق كنا نفكر بالأحسن، أما أنا فلم يكن لي هذه الدنيا سوى ولدي (حسن) الذي يعمل سائقا على شاحنة كبيرة بين العراق والأردن وسوريا، ولدي (حسن) بالإضافة إلى مهنة السياقة فقد كان يلبي حاجة الأفراد الذين يعانون من شحة الدواء في توفيرها من هذه الدول للأهالي .

بعد فترة من الزمن شعرنا بأن تشكيل الحشد العشائري أصابه الصدأ خصوصا حين أصبح الهجوم الأمريكي على الأبواب، لم يُحرك ساكنا إزاء السرقات التي عادت بقوة هذه المرّة وتهريب السلاح أخذ يدخل المنطقة بلا رقيب. فسيطر عليَّ الخوف والهم، ليس أنانية مني في هذه الظروف أن أخشى على ولدي الذي امتهن الطرق البرية حيث أحبها وشغف بها لحد النخاع، فكان تفكيري لا ينقطع بولدي فهو يستولي على مشاعري وأحاسيسي قلت له بقلق واستياء :» ان طائرات العدوان إذا أغارت قد تستهدف الطرق الخارجية حاول في

هذه الظروف أن تتجنب العمل لا أحب أن تخاطر بنفسك (رد عليَّ باطمئنان :) بأن العدوان لم يحصل بعد والأمريكان رغم قوتهم الكبيرة إلا إنهم مجرد أن يستعرضوا العضلات الآن؛ أمريكا لا تفكر هي بمثل هذه الحماقة؛ وهي أدرى من غيرها إذا فعلتها سوف تغرق المنطقة كلها بالفوضى) تركت الحديث معه ليس لأنه لا يسمع الكلام، بل لأنَّه لا يحلل ما يجري حوله بالفطنة؛ طبيعته يترك لفطرته تتمدد على حساب الحقيقة وهذا ما يجعلني أخشى عليه من نفسه، ولذا تركت الحديث معه ودعوت الله أن يسترنا جميعا وأن يمّنَ علينا حسن العاقبة...

المنطقة دخلت حالة السكون الذي يسبق العاصفة، كانت المخاوف مزروعة عند الكبار والصغار، الإذاعات صار شغلها الشاغل متى يبدأ الهجوم؟ وكانت كل الأخبار غير سارة بعد أن عرض -كولن باول- وزير الدفاع الأمريكي في مجلس الأمن انبوبا يحتوي مسحوقا أبيض (انتراكس -الجمرة الخبيثة) وصورا لأقمار صناعية معتبرا ذلك دليلا لا يمكن دحضه على امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل ثم يأتي تقرير - البرادعي- ليؤكد ما قاله (باول)، تسارعت الأحداث بعد ذلك وغارت الطائرات واشتعلت الحرائق في كل مكان ثم أعقب هذه الغارات الهجوم البري، وإتّسع الغزو

سريعا على كل المدن والقصبات والأقضية والنواحي وصار كل شيء تحت هستيريا الحرب مباح، انقلبت منطقتنا بالذات في ليلة وضحاها من حال إلى حال، حيث لم تعد هناك أسواق لا في منطقتنا – سحل– ولا في قضاء راوه، مما جعلت عوز العوائل في أوج الحاجة إلى أبسط مقومات العيش .

وفي أحد الأيام وأنا أفكر في وضع أبني وفلذة كبدي (حسن)، ويدي على قلبي إزاء كل خبر أسمعه من قريب أو بعيد، مبتهلا إلى الله وشفاعة أهل بيت النبوة أن يعود سالما إلينا، الله سبحانه ولم يخيب ظني في تلك الساعة، حيث بعد منتصف الليل حضر (حسن)، و لم أصدق نفسي وأنا أتحسس وجوده وطراوة صوته بيننا، يا لها من نشوة تدخل البهجة والسرور على النفس .

حسن أثناء العودة تعرضت شاحنته للقصف ونجى من لهيب النيران بأعجوبة، آثار الحرق ماتزال طرية ندبها على يديه وقدميه ولكن على ما يبدو حروق خفيفة ولله الحمد، شكرت الله وآل البيت الأطهار على نعمة الوصول سالمًا غانمًا. كان بودي وقتها لو أنحر بعض الخرفان قربانا لله ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن إذ رأيت منطقة – سحل– مليئة بوجوه الأغراب، يا الهي، من أتى

بهؤلاء، وكيف دخلوا هذه المنطقة ومن سمح لهم بذلك؟ كانت الأشكال واللهجات عبارة عن رطانة لا تفهم منها شيء، وكلها مدججه بالسلاح ويزعمون بأنهم جاءوا للدفاع عن ديار المسلمين. ولكن بعد أيام ظهروا على حقيقتهم بأنهم وبال على ديار المسلمين، شعاراتهم وعنصريتهم واضحة لا لبس فيها ولا شك، وبدأوا يجندون الشباب والأطفال في صفوفهم ..هجروّا أهالي (سحل) بقوة السلاح إلى الجزيرة، باستثناء من تطوع للقتال في صفوفهم، وأخذوا بين فترة وأخرى يرهبون مخيماتنا باستعراضاتهم وشعاراتهم الجوفاء ويأخذون بأطلاق النار العشوائي، وتمادوا أكثر عندما أبلغونا بضرورة زواج هؤلاء المقاتلين من بناتنا، ولم تثنهم أعرافنا وتقاليدنا عن رغبتهم تلك، فكانوا بين فينة وأخرى يهجمون على أي خيمة يشاهدون فيها بنات ويسبوهن من أهاليهن عنوة، اضطررت أن أعمل بسرعة وبسرية فائقة –قبل أن يتفاقم إجرام هؤلاء الدواعش الأوباش– إلى تشكيل فوج اسميته (السبطين) لتحرير العرض والأرض، وأخذت عملياتنا تجد لها صدىً جيدً لدى أبناء العشائر حيث التحق عدد منهم إلى صفوفنا، وعلى الرغم من شحة العتاد ومؤن الأرزاق في صفوفنا بدأت عمليات تطهير مناطقنا وإن كانت بطيئة إلا أنَّ هذا الفوج

أثبت للدواعش أنه لا يُهزم ..

حسن ولدي ساعدي الأيمن، وكانت أغلب غاراته على أكداس الدواعش، ويأتي بها غنيمة للفوج ونحن بدورنا نوزعها على السرايا والحضائر وقبل تحرير - سحل- بالكامل وصلني نبأ استشهاده في عملية بطولية لمطاردة واحد من أبناء المنطقة الذي خان الزاد والملح وادعى إنه (أمير الصحراء) وعند الأنقضاض عليه وأثناء العودة تفاجأ ابني والقوة التي معه بلغم أرضي فروى مع صحبه أرض التحدي والفداء دمهم الطاهر.ولم تمضِ أيام قلائل على التحرير من دنس الدواعش وهم يجرون أذيال الخزي والعار والهزيمة حتى نسيت نكبتي بولدي وفلذة كبدي (حسن)حين أخذت العوائل تعود مبتهجة إلى ديارها.ولكن مالم أنسَهُ أو أغفره له من وضع أسم أمير الصحراء على قائمة الشهداء زورا وبهتانا.

رهينة

أنا (قبس) بنت المرحوم الحاج (كامل الجغيفي) من أهالي (هيت) زوجي دعسته أحدى سيارات داعش أثناء خروجه من المحل. كان محله لتصليح الدراجات الهوائية وكنا نعتاش منه، ولما حصل الحادث المشؤوم انقطع معه الرزق إلاّ ما رحم ربي .كنت كلما أراجع (الحسبة) على موضوع الحادث الذي أفقدنا المعيل الأول للعائلة لم أجد أذنا صاغية منهم، فكان الجيران يتصدقون علينا وكل يوم أقول اليوم انتهى غدا ماذا ينتظرنا؟ إلى متى تبقى الناس تساعد ونحن لا نقوى على رد الجميل ..

أبني الكبير (جمعة)يسكن بغداد وهو رياضي يتدرب ضمن المنتخب العراقي لكرة القدم، وكلما كان يحاول أن يأتي لزيارتنا أمنعه وأقول له لا تفجعني ياولدي مرتين فليس لي طاقة على تحمل الأحزان. قالت لي واحدة من الجيران: (تنقبي وأخرجي لهم)، أطرحي الموضوع على أميرهم ؛أتركي الشكوى للحسبة وأعرضي مظلمتك على (الأمير)

مباشرة عسى أن تجدين لديه فرصة للمساعدة. ولم يكن خروج النساء من البيت أمراً سهلاً، أو عادياً أطلاقا، عليَّ أن أحتشم تماما كما قالت صاحبتي حتى لا يتهموني بالمعصية وأذهب بشربة ماء كما يقال. كنت مترددة من الذهاب وتقديم هذه الشكوى لأني أدرك مسبقًا أنَّ هذه الشياطين الداعشية لم تحمل في قلبها الرحمة والغيرة والشرف ولهذا شعرت باليأس ولذتُ بالرحمن أشكي له ضعف البدن وضيق الحال. كانت والدة زوجي تعاني من عدة أمراض وهي معنا في البيت وعندما عرضتها على الطبيب قال انَّ علاجها في بغداد، فرجوت مضطرة من (الحسبة) مساعدتي في نقل هذه المرأة الكبيرة في السن إلى بغداد، قالوا لي بالحرف الواحد: لا نسمح لها بالخروج فكانت حالتها متردية لا تسمح أن تبقى في البيت ولا يمكن أيضا الاستغناء عن العلاج، ولهذا نقلت إلى المستشفى تلافيا لما قد يحدث لها من مضاعفات وهناك بقيت ثلاثة أيام بلياليها مطروحة على السرير لا أحد يتقرب منها،وكلما أتوسل بأحد الممرضين فانَّ توسلاتي تذهب أدراج الرياح فلا أحد يبالي، وكانت هناك عبارة سمجة تتكرر على مسامعي (اتركيها تموت براحة ..إنها أمرأه كبيرة.

في هذا اليأس المرّ الذي يوخز أعمارنا كنت أبذل كل ما في وسعي

لخدمتها التي لا تساوي شيئاً إزاء معاناتها مع المرض الذي يستفحل عليها يوما بعد يوم حتى فاضت روحها إلى بارئها وعدت إلى بيتي أجرُّ خيبة العزاء بالجدة رحمها الله، وكان ابني (جمعة) يعرف الحال الذي وصلنا إليه ويحاول دائما الاتصال بنا ويريد أن يقدم لنا يد المساعدة ولكن كنت أمنعه لأني أدري بأن مجيئه يكلفنا مصيبة أخرى ولهذا كنت أقسم عليه بروح الأب والجدة أن لا يأتي لنا، فنحن إذا وجدنا فرصة سانحة سوف لا نتأخر في لقائه. اضطررت في هذه الأثناء أن أشجع – خلدون– أبني الأصغر على بيع السجائر بالخفاء خشية من جواسيسهم المنتشرين في كل مكان وبعد فترة وقع خلدون بأيدي جماعة (الحسبة) وسُجنَ (خمسة عشر) يوما لأن السجائر محرمة لديهم.

وبعد قضاء المحكومية عاد لبيع السجاير مرّة أخرى أيضا فألقوا القبض عليه وسجنوه وقالوا له في المرّة الثالثة سوف نقتلك (صلبًا) إذا قبضنا عليك وأنت تتاجر بهذه المعاصي وبعد شهر ونصف الشهر من سجنه خرج من دهليزهم الأسود يَئِنُ من جلدهم المبرح، ومع كل تلك الآلام كان عاقدا العزم على أن لا يراني مهضومة أمام آفة الحاجة ويعد نفسه المعيل الوحيد لي أنا الأرملة البائسة حيث عاد

أيضا لبيع السجائر مستفيدا من أخطاء المرتين السابقتين اللتين أُلقي فيهما القبض عليه وحاول تفادي مثل تلك الأخطاء غير أنَّ الجواسيس كانوا أكثر منه نباهة وخبثا فوقع في الفخ وألقى جماعة (الحسبة) القبض عليه وحجزوه في مكان مجهول.

وبعد أن بحثتُ عنه عن طريق أصدقائه لكوني امرأة لا يمكن البحث كما هي عند وسائل الرجال، وهذا ما كان، حيث أخبروني بأن -خلدون- سوف يصلب بعد افطار المغرب هكذا هي أحكامهم في حلول الشهر الفضيل شهر رمضان المبارك ويكون التنفيذ وسط -الجري- وسيكتبون على صدره (تاجر المعاصي) فأرتديت وقتها درعا ورداءً (بوشية) وكأني واحدة من نساء الحسبة؛ فأي إمرأة لا ترتدي النقاب أو الكفوف في يديها يقيمون عليها الحد أما بعصى كهربائية أو بالسوط ذات دبابيس، ذهبت إلى مقرهم الكائن في شارع (الحمام) داخل -راوه -وأنا منهكة ومرتبكة والخوف يعتريني وجسمي يختض من وقع الخبر الذي زلزل كياني فكانت شفاهي ترتجف وأنا أحدث رجل (الحسبة) عن صلب ابني الصغير طالبة الشفاعة لسندي ومعيلي الوحيد في هذه الدنيا، وإذا بأحد الجالسين -وأعتقد أنه قد عرفني- حاول تهدئتي قائلا:

أختي اذهبي للبيت وأعدي له إفطارًا دسما هذه الليلة.

قلت وأنا في حالة أحباط: كيف ذلك وهو مُقبل على الصلب؟

رد عليَّ بنبرة حادة: قلت لكِ توجهي لبيتك وأعدي له الأكل؟

وفعلا توجهت إلى البيت (فاتني أن أقول) وقبل أن أتوجه للبيت كان ثُلّة من أصدقائه ينتظرون مني الخبر حول مصير- خلدون - ولا يستطيعون التقرّب مني لكوني من المحرمات، ولكن أفهمتهم ما دار في (الحسبة) بعد أن سقطت على الأرض بحجة أني فقدت الوعي وبهذه الحيلة فهموا مني ما وعدوني به وهم يعرفون بأني لا أملك شيء أقدمه لخلدون فسعوا إلى عوائلهم لتجهيز الأكل، لكن المفاجأة التي كانت تنتظرني هي عندما فتحت باب البيت رأيت - خلدون- في حالة يرثى لها المهم؛ لا أحد يستطيع أن يعرف ماذا حلَّ بي عند رؤيته حيًا، كلّ تفكيري قد انقلب رأسًا على عقب، الرعب والفرح امتزجتا في أيقونة واحدة وهتفتُ بعلّو صوتي: ولدي خلدون.

لا أدري كيف هي حال الكلمات التي أخرجت من فمي، هل كانت بكائية أو أنها خرجت من نشوة غامرة، أنا التي أتعثر بصدماتي واحدة تلو الأخرى أجد أبني يخرج من الموت الحقيقي ومن براثن هؤلاء الذين تلطخت أيديهم الآثمة بدماء طاهرة من الأبرياء طلاب

وطالبات ومزارعين وعمال وأساتذة جامعات ومهندسين وفنيين وسبي العذراوات وقتل كل من وقفت بوجوههم الكالحة لتصبح بعد ذلك رمزا للعفة والكرامة، فكان الموت المجاني يحصد الأرواح بدون رحمة أو شفقة، إنها قوافل من الشهداء الأبرار في منطقة صغيرة كمدينتي – هيت– ولو أن أخبارهم في المناطق الأخرى لا تقل بشاعة واستهتارا بقيم الإنسان، فلا يسعني إلا أن أقول إلا (حسبي الله ونعم الوكيل) من هؤلاء السادرين بغيّهم نحو الترهيب والقسوة والبطش .

وبعد مدّة شهرين القوا القبض مجددا على – خلدون– لكن هذه المرّة كانت التهمة مختلفة، وهي أن حجة الاعدام لم تزل باقية إذا لم يدفع غرامة مالية، قلت لهم: أنا لا أملك شيء حتى أدفع غرامة سوى البيت الذي نسكن فيه، اقتنعوا بالبيت مقابل ابني .وقبل موعد تسليم البيت هجمت طائرات التحالف وكان البيت من ضمن الأهداف فأصبح ركامًا، فألغوا الدواعش على الفور هذا الاتفاق.أبني (جمعة) أستطاع أن يجمع مبلغا من المال وكان يحاول جهد إمكانه أن يوصل هذا المبلغ لإنقاذ أخيه من الموت، ولكن أغلب محاولاته لم تجدِ نفعًا، فسلمنا أمرنا للباري عزَّ وجل أن يجد لنا مخرجا مما نحن فيه وإذا

بالحسبة تشاهد الموقع بأنه يصلح أن يكون تجاريا فطلبوا مني السند العقاري للملك..سلمتهم السند واتجهت مع – خلدون– إلى السكن في المقبرة جوار الأب والجدة نرتزق من ثواب الأموات لكي نؤجل موتنا .

يوم الخندق

كان أخي الكبير -اسماعيل راهي الصابري- يوزع الماء بواسطة سيارة حوضية (تنكر)على العوائل المهجرة، هو لم يكن مكلّفا من جهة رسمية أو غير رسمية للقيام بهذا الواجب، بل هو عمل طوعي وبمجهود فردي،لقد باع أرضا لديه وأشترى بثمنها هذه السيارة لمساعدة الأهالي التي أبتليت بالفتنة الطائفية وراح ضحية ذلك الكثير من الأبرياء من أبناء -ناحية كنعان- والقرى المجاورة لها في محافظة ديالى مثل: (بني زيد) و(المجمع) و(الداينية) و(الندى)، وجميع عوائل هذه القرى متداخلة في المصاهرة والنسب؛ وغالبيتهم تمتهنون الزراعة وتربية المواشي. وحين دخلت مجاميع داعش الارهابية على هذه القرى عملت على تفتيت عضد هذا النسيج العريق من خلال التدليس (كذب، تلفيق، وخداع)لغايات شيطانية ومآرب دنيئة، فالفتنة الطائفية هي واحدة من ألسنة اللهب المرعبة التي من السهل تأجيجها ولكن من الصعب أن تطفئ أوارها، وفعلا تحرك

هذا المارد(لعبة المكر الداعشي)وفعل فعلته الشنعاء في تخريب هذا النسيج الاجتماعي الذي بدأ يأخذ بالأنهيار والتصدع. صار القتال على الهوية فكان الأغلب يفرُّ بجلده لمكان آمن مبتعداً عن هذا الصراع البغيض الذي وجد فيه الدواعش ضالتهم الكبرى في السيطرة على هذه القرى.

كانت الاستعدادات في أول محرم تأخذ طريقها إلى إقامة العزاء في ليلة العاشر، ذكرى استشهاد الأمام الحسين عليه السلام، فأخبرني أخي- أسماعيل- أن الدواعش يعدون العدة لذلك اليوم، ويعتبرون هذا نوع من التحدي لنفوذهم الذي يجب أن يُطاع، ويجب أن تُلغى كل الشعائر ماعدا شعائر دولة التنظيم، فهناك البعض من الراشدين بينهم لا يقبلون مثل هذا التصرف الذي تُطالب به داعش وكانوا يرون أن هذه التصرفات في تحريم المناقب الحسينية منافية للأعراف والتقاليد بين القرى والعشائر التي لم تألف سماع مثل هذه النعرات في تاريخ حياتهم، فهم متعايشين ومتحابين ومتصاهرين بغض النظر عن اختلاف المذاهب فلا يجوز التهديد حسب المعتقد، فالدين للجميع ولكن هؤلاء الدواعش لا يعنيهم أسلوب المنطق والعقل معتقدين أنَّ قوة السلاح كفيلة لتنفيذ مشروعهم الإنحرافي المشين وقلب تعاليم

الإسلام رأسا على عقب.

كان (سيد هاشم) المسؤول عن العزاء رجل ميسور الحال وله مكانة معروفة في القضاء وفي - ديالى- كلّها، وسبق له أن أطلق فكرة قبل النزوح وهي طلب شراء السلاح من كل القرى لغرض مقاومة الأمريكان، حيث لاقت هذه الفكرة أستحسان الجميع فابتاع البعض له السلاح مقابل ثمن والبعض الآخر تبرع به مجانا معتقدين أن الهدف مشترك وهو مقاومة الأمريكان، بينما في الحقيقة كان خطر داعش هو المعني الأول لما يقوم به من تدمير للنسيج الاجتماعي بإثارة الفتنة الطائفية وتكريس العداء والخلاف بشكل سافر وعلني إزاء الخط الحسيني، فأغلب الضحايا هم من جماعة هذا الخط الموالي لآل البيت والأئمة الأطهار عليهم السلام. إن انتقام الدواعش صار لا يفرق بين شيخ وطفل وشاب وامرأة، والأنكى من ذلك أن الجبناء الدواعش أخذوا يزرعون جسد الضحية بالألغام؛ فكان العثور على الجثة لم يكن صعبا ولكن عملية تنظيفها من الألغام هو تحدٍ آخر. إن أغلب جثث المغرر بهم كانت تبقى في العراء فترة طويلة إلى أن يتبرع بعض الأهالي من ذوي الخبرة في إزالة الألغام لكي يتمكنوا من إخلاء الجثة، إنهم فئة باغية كانت سادرة في غيّها، وعندما وجدوا قريتنا لم

تهتم لتهديدهم في منع شعائر العزاء لم (يواجهنا شراذمتهم) وجها لوجه بل أستعانوا بالمفخخات وكان لدينا علمٌ بذلك واستعداداتنا جارية على قدم وساق، وحين أفشلنا هذه المحاولة والتي كانت أشبه بالضربة القاسية التي تلقوها على يد رجال القرية البواسل استخدموا خطط جديدة لتنفيذ جرائمهم .

قال لي أخي أسماعيل انَّ هناك قائمة أسماء حصل عليها من أحد المحسنين عن طريق أحد أقرباءه الذي يعمل مع الدواعش، فيها العديد من الأسماء التابعين لقريتنا مرشحين للاغتيال عليك أن تبلغهم ليكونوا على أتمِّ الاستعداد على مواجهة الجبناء وأن يكونوا حذرين في تنقلهم، فهم لا يأتون إلى قريتنا بوصفهم دواعش، بل هم يخشون أن يدخلوها مكشوفين، فكنا أي شخص نمسكه ونشك في أمره نأخذه إلى سيد هاشم، فيقوم السيد على إصلاح من يجد فيه مجالا لذلك والآخر يأخذ منه كفالة ضامنه من أهل القرية وإذا لم يتوفر أحد يضمنه يتم منه الطلب بحفظ خمس سور من القرآن الكريم وحفظ عشرة من الأحاديث النبوية الشريفة وعشرة أخرى من أحاديث الأئمة الأطهار وكان ذلك لا يروق للدواعش طبعا، فقرروا أسلوبا آخر يعتمدون فيه على الأجانب .. وهؤلاء الأجانب يعتقدون في

قضية الأمير والأمارة هو الولي الشرعي عليهم وأن (حور العين) لا تأتيهم إلا من خلال هؤلاء، والمشكلة انهم يظنون أنَّ أي قرار يصدر بحقهم هو هبة من الله لرضاء الأمير، يالهم من رجال يعيشون على السفاهة والبدع والخرافة، فيضطر السيد أن يجعلهم تحت الأنظار، فلا يمكن الوثوق بتصرفاتهم.

مازال أخي أسماعيل لا يفرق في العوائل المهجرة بين ملّة وأخرى فهو يعطي الماء الصالح للشرب بالتساوي، ويلتقي يوميا بعد صلاة العشاء بالسيد الذي تكفل بإصلاح عطلات السيارة وتسديد فاتورة الوقود. وفي أحد الأيام وصل الخبر إلى السيد بأن الأجانب الذين يحتجزهم هم من سوف يقتلونه ويتحررون منه..

أعلن السيد في اليوم التالي خطبته العصماء، مفتخرا بنسبه الكريم وإنه من أبناء سلالة لا تخشى الموت ولها قدوة في الرسالة المحمدية التي تستمد من الحديث الشريف نهجا لها. فمن طلب الشهادة صدقا أعطيتها ولو لم تصبه. ورزق الشهادة بصدق النية، لا بأجانب مغررة يساق بهم كالخراف ليلاقوا حتفهم رغم انوفهم، ولما كُشفت مؤامرة الدواعش على القرية تمت الوشاية بأخي بأنه هو من ينقل الأخبار ويبلغها للسيد مما سعوا لقتله بأي ثمن، فالقضاء عليه يعني حرمان

قريتنا من مَدِنا بالمعلومات، أن أخي أسماعيل لم يكن هو الوحيد الذي يتعاطف مع السيد ؛هناك العديد ممن كانوا غير مقتنعين أصلا بسلوك الدواعش ..

زادت نسبة النازحين بعدما أن تمت تصفية كل من ترفع أسمه – الحسبة– من الذين يشكون بولائهم ولهذا كانت مخاوف أخي اسماعيل في محلها عندما أخبر القرية بضرورة حفر الخنادق. تلك الخنادق التي هرع كل رجال القرية سنويا لتخليد ذكرى من روى بدمه الطاهر يوم الخندق.

رقص الثعابين

في أثناء تقدم القوات الأمنية على مدينة – راوه– هجمت مجموعة من الدواعش على البيت، نحن سبعة أفراد جدي وأمي و خمسة من أخوتي الصغار، والدي– زناد الراوي– سمكري سيارات؛ يقيم في بغداد وأنا أبنه البكر سعيد، طالب سنة رابعة حقوق وكان لدي – كشك – لبيع السندويش في جامعة الأنبار.

الدواعش من ضمن فنونهم في قتال المدن يستخدمون المرواغة والتنقل بين البيوت بواسطة فتحات تطل على البيت التالي، فأثناء المواجهة تتيح لهم هذه الطريقة الهروب والمناورة في آن واحد، يقنص ويفتح النيران من سطح البيت وعندما يتضايق أو يكتشف مصدر نيرانه يتحول إلى بيت آخر بسهولة عن طريق هذه الفتحات. فكانت أعداد الداخلين على بيتنا، دخول الوحش الكاسر مجموعة لا يمكن حصر أفرادها ولكن من الممكن تخمين ذلك بأنها تتجاوز العشرة على أقل تقدير، أراقب حركتهم الوحشية وهم يهرعون إلى سطح المنزل

بكل وقاحة وقباحة ..

قلبي كان يحترق فكلما أحاول القيام بفعل شيء كان جدي يمنعني من ذلك ويعده تهورًا قد يُهلك كل من في البيت، وكلما يشتد اقتراب القوات الأمنية تجد هؤلاء يتكاثرون مثل النمل في بيتنا وكأنه البيت الوحيد في هذه المنطقة، يرطنون فيما بينهم بلغات أجنبية، وأكثر كلامهم غير مفهوم وحركاتهم صبيانية وكأنهم يؤدون تمثيلا دراميا في مسلسل بوليسي، كركرات وضحك واللامبالاة سائدة بينهم ولا يمكن أن تلاحظ أنهم سوف يلاقون حتفهم إزاء تقدم القوات الأمنية والقوات المتجحفلة معهم، يالهم من صنف مجنون في عالم الشر والأنتقام والعدوانية الرعناء . جدي حريص على أن نكون في غرفة واحدة وعلينا أن نكتم أنفاسنا حتى نرى كيف تأخذهم صاعقة الرجال الذين آمنوا بالله ووحدة الوطن بإذنه تعالى .

كانوا يصعدون السلّم كالقرود وينزلون من دون إذن من أحد، لا تعنيهم حرمة المنزل ولا ثمة اكرام لأهل البيت. أمي سمعت قرقعة أواني الطبخ وحاولت أن تخرج لمعرفة مايجري علما أن المطبخ مجاور لغرفتنا وملاصق له تماما، جدي لا يسمح بتاتا بالخروج من تلك الحيطان التي تسوّر حياتنا وتعد لنا ملاذا آمنا حسب مايراه، فهي غير

محصنة تماما؛ ولا يمكن أن ترد القدر إذا حصل لا سامح الله، ولكنها تبقى أفضل وسيلة راهنة في هذه اللحظات الحرجة.

كم حاول والدي الاتصال بنا؛ فكان جدي يغلق الهاتف. أمي كانت تقول: لماذا لا تكلمه، فهو قلق علينا ياعم. كان يلتفت نحوها ويومئ لها أن تهدأ من روعها، طبعا بالإشارات ومن دون كلام. كان جدي محارب قديم ويوصينا أن نتشبث بأركان الغرفة ولا نفارقها فسقوط القذيفة لا تستأذن أحداً، الحذر يجعلنا أن نقلل من الخسائر، كنا محاصرين وهم أحرار في البيت، كنا لا نتكلم وهم في حالة غليان لا تفهم منه سوى تصاعد لغطهم بين الفينة والأخرى، كنا خائفين ومرعوبين من أي طارئ وهم يتبارون في سحب الأقسام داخل البيت وتبديل (الشواجير)أو تنظيف السبطانة بالمرود، يبدو أن حياة الدواعش لا تشبه بقية الخلق، انهم كالبعوض حياتهم لا تنتعش إلا في حوض من القمامة، ساعات عصيبة لا مفر لنا منها داخل هذه الجدران الكئيبة التي امتلأت برائحة البارود ولم يكن لنا بُد غير التحسب والترقب الأسوأ في هذا المحيط النتن الغاطس بالتوجس. كان أشد ما يغيظننا نحن العائلة المحاصرة في ظلمة هذيان الليل هو تلك الأصوات التي يختلط فيها الصراخ والضحك الآتية من فناء

البيت ولا تفهم مغزاها، لكن قرقعة الأواني في المطبخ تتحسسه أمي بضجر وبودها استطلاع المكان فورا لولا نظرات جدي الحادة التي تزجرها عن فعل أي شيء. أخي الصغير - نادر - لم يتحمل الهواء الثقيل للبارود فكان يتقيأ ويصرخ من شدة الاختناق، جدي بلل شال أبيض ناعم الملمس وغطى به رأسه، أخي- محمد- الذي يكبر - نادر- بسنتين تهشم بوجهه زجاج النافذة جرّاء قوة الارتجاج من سقوط قذيفة قريبة. أمي صرخت بملء فمها لولا جدي الذي كتم على فمها وأخرسها مليا، قائلا لها: ويلك يا امرأة أنكِ تقتلين الطفل بهذا الصراخ. اصمتي؟ .

وقع الأقدام جوارنا ومن فوقنا يأخذ بالازدياد المريب، جدي عصب رأس - محمد- بشالة قديمة لأمي ووضعه في حجره وهو يأكل خبزة يابسة رفعها من أرض الغرفة. أخي الوسط -شبيب -يرى من خرم الباب حركة الدواعش ويتزاحم معه أخي - ابراهيم - على التلصص ويقلدون حركاتهم بصبيانية مقيته لا تسمح للتندر في هذا الظرف العصيب، انهما يتماديان رغم تحذير جدي الاقتراب من الباب، بهذه الأثناء ارتفعت حرارة أخي - نادر- بكت أمي بمرارة وهي تغطي وجه نادر، جس جدي مستوى حرارة نادر وهو يسحب

نفسه بصعوبة، قائلا لأمي :دثرية حتى يعرق. استغربت أمي من كلام جدي، هذا الكلام ينطبق على صاحب الرشح بينما نادر صار لديه تحسس من رائحة البارود التي زكمت الغرفة بثقلها الزنخ بين هذه الجدران المحاصرة بصراخ الدواعش .

فزَّ محمد من حجر جدي مرعوبا وهو يصرخ :بابا، بابا. حاول جدي إسكاته إلا أنَّه بقي يتلوى من ألم الرأس والوجه، كان وجهه متورما ولا يستطيع فتح عينيه، لأول مرَّة أرى جدي ضعيفا، وهو يمسح دموعه بصمت، كان الليل يمضي بطيئا والنار الملتهبة في الخارج تأكل الأخضر واليابس ونحن محاصرون بهذا البلاء الذي يثخن الجراح التي نعيشها ولا يمنحنا فرصة لالتقاط الأنفاس.

صرخ من زاوية الغرفة أخي - ياسر- الذي كان يحتضن نادر قائلا لي باقتضاب :» سعيد أنظر الى جدي انّه ينزف. رأيت وجه جدي غارقا بدمه، أسرعت نحوه، وضعت رأسه بحجري، ألتفت إليَّ ومن دون أن يتكلم، عرفت أنه مصاب، كان النزف يتدفق من الجبين، يا ألهي كيف تعرض جدي للإصابة؟ كانت شفتيه يابسة وبالكاد يلتقط أنفاسه،أمي تولول على هذا الحال أخواني تجمعوا حول جدي وعيونهم مغرورقه بالدموع، وبصمت ثقيل كانت عيناي لا تحبس

دموعها هي الأخرى، والشياطين الدواعش يرقصون في البيت رقص الثعابين، وكأنهم لا يدركون حجم المأساة التي دخلت هذه الجدران القاتلة، ومن عمق تلك الآلام أطلقت صرختي :جدي؟ ولم (يجبني) أحد سوى صوت العريف - حمادي- حسب ما مكتوب على كتفه للتعريف،وهو يقول:كنا نعد العدة لضرب هذا البيت بالطائرات ولكن المجرمين اختفوا، فوقفنا الأمر. وعندما حملوا جثمان جدي ولفوه بالعلم العراقي وأخرجوه من الدار كان والدي هو أول من أستقبل النعش، لقد كان بين الجحافل يسابق الزمن من أجل أن يرى أباه..وبعد أيام من تلك الحادثة دخلت البلدية الى البيت ورفعت جثث الدواعش من المطبخ وتوارت بها إلى جهة مجهولة بعيدا عن قلب المدينة النابض بالحياة .

ذكريات الأب مريوش

ما أكثر النفوس الضعيفة حين تواجه الأزمات فأن الحقائق المتخفية عند بعض الناس تظهر على حقيقتها وكما هي، وعندما لا تتطهر من عبوديتها للذل والمهانة وبيع الضمير فان أمرها يبقى مكشوفا في تخاذلها أمام الزمن العصيب، انَّه زمن جليّ المعادن.

كنت أبيع أدوات احتياطية للغسالات والثلاجات والسبالت وكان محلي معروفا في مدينة الرمادي، علما أن سكني هو في مدينة الفلوجة، ولم يثنِ حضوري الدائم في متابعة أعمالي في التسويق من خارج المدينة وداخلها اضافة لنشاطاتي الأخرى التي تصب في المشاريع الخيرية، أنا لا أزعم أني المتبرع الوحيد ولكني جزء من رجال ميسورين يطمحون في رضى الله ومخافته وخصوصا فيما يرزقنا به الله من أموال أن يكون للفقير نصيب منها وذلك للمساهمة في التخفيف عن عبء كواهل العوائل المتعففة ومساعدة بعض المرضى الذين يحتاجون علاجا في الخارج ولم نتوان عن ذلك اطلاقا،فأني أجد ذلك

تكليفا شرعيا أوصى به الله والدين الحنيف والعلماء الأجلاء وهو جزء من أخلاق الإسلام على مدى العصور، وهذا ماكان يحصل في تردد أسمي مع مجموعة من المحسنين في لوحات الشرف التي تقوم على اعدادها سنويا إدارة المحافظة، ولم نكتفِ بذلك بل سخرنا آلياتنا وعمالنا قدر المستطاع في مساعدة الحكومة المحلية في ترميم بعض المدارس الآيلة للسقوط وإعادة الحياة لها وتأهيلها لاستقبال أبنائنا الطلبة، هذا كله كان ما قبل حلول الغمامة السوداء ورياحها النتنة التي داهمتنا على حين غرّة فالدواعش السفاحين قلبوا المدينة الوديعة إلى رعب وخوف وكان انتشارهم في الفلوجة هو(غراب البيّن) ونذير شؤم وبلاء وسوء طالع، الأرض كلها أصبحت جهنم كالجحيم، النار مشتعلة في كل الوديان، لا يمكن أن تطلب شيئا أو تعطي شيئا كل ماحولك ملبد بالتوقع الذي لا يصلح للحياة ..قالت لي زوجتي في تلك الليلة :اياك ياحاج مريوش أن تندفع بعاطفتك لا بعقلك، حتى لو سمعت إني أناديك لا تسمع كلامي، فالوضع لا يبشر بخير، وأطفالك هم أحوج اليك الآن.

تراشق النيران لم يهدأ ولا سبيل إلى توقف ذلك الهدير الناري في الوقت الحالي، كنا بين الجدران مذعورين ونسمع صوت تهشيم

البيوت على ساكنيها وليس لنا في اليد حيلة، ماذا نفعل ويدنا مغلولة، الوحيد لنا في تلك الحالة هو كتاب الله، كل عائلتي متمسكة به، مرات نفتحه ونقرأ آيات من الذكر الحكيم، نتشبث بالقرآن كلنا صغارا وكبارا وخصوصا عندما يكون القصف قريبا، وشظايا الأنفجارات تتخاطف كالبرق من فوق الرؤوس، كانت أياما دامية بحق ولا يمكن نسيانها، وأغرب ما فيها عدم وجود آثار لتشيّع الجثامين بعد أن يخف القتال ومع ذلك لا تدري من تسأل ..ولمن تسأل؟ فالأغلب يعرف أن -الدواعش -مدربون على فنون القتال وبمختلف الأسلحة ولا يهتمون لو احترقت قرية بالكامل لديهم روح عدوانية قاتلة وغادرة، ولهذا من غير الممكن في ظروف كهذه أن تخرج من مكانك وتستفسر عن شيء .

وفي اليوم التالي عصرًا؛ طلبت مكبرات الصوت أن يجتمع الأهالي عند بناية القائم مقامية القضاء لأمر هام ومن يتخلف عن الحضور سوف يعرض نفسه للمساءلة القاسية، هبت الناس للمكان الموعود وأنا من ضمنهم رغم اعتراض زوجتي على الخروج، كان الطريق لا يخلو من مناظر بشعة لم أشاهد مثيلا لها حتى في -أفلام الأكشن- أطراف بشرية مقطعة، نصف جثث معفرة ببركة من

الدماء، تتسابق الكلاب الضالة على غنائمها البشرية بشراهة، حبست أنفاسي وأنا أجرَ خطواتي في متاهة اللامعقول الذي يصادفني بشرود ذهني، كل الطرق تعيد عليك نفس المناظر، لا يمكن أن تنجو مما تراه فهو يحيط بك من كل جانب وإن كان كل ذلك يدفعك للاشمئزاز من ذلك المنظر القاتم المفروش على الطرقات، لا يسعك إلا أن تقول عند تلك الاستباحة المجردة من قواميس العصر، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الشيء اللافت أنك لا تشاهد اثنين على انفراد بل أصبحت الناس مجاميع، مجاميع أحدهم يتحاشى الحديث مع الآخر وكأنهم بانتظار أمر جلل سوف ينزل عليهم رغم أن الكل لا يدري ماهو التبليغ التي تبوح به- الدواعش -في ذلك المكان الخرب الذي كان مقرا للقائم مقامية في يوم ما، وعندما امتلأت الحشود أمامهم أعتلى أحدهم بزيه القندهاري وقال بزجر:

أي شخص نقرأ أسمه يأتي إلى هنا يقصد الساحة الفارغة على شماله، لقد كان أسمي ثالث أو رابع أسم مريوش عباد محسن الدليمي لم أقل نعم ولا أي شيء آخر بقيت في وضع - المسطول - الذي لا يدري ماذا يقول لقد تلبسني الذعر من رأسي حتى أخمص قدمي، يبدو أن الكثير كان يعرفني لذلك نظر أغلب الحشود نحوي فلم

يتوان الدواعش من أخذ هذه الإشارة على محمل الجد وقادوني بغلو وتأنيب وزجر إلى الساحة المقابلة، وبعد فترة وجيزة كنت أنا الوحيد بين مخالب الدواعش، أين هي بقية الأسماء؟ أنا من بين كل هذه الجموع يندرج أسمي، ومن بين كل الأسماء أنا الوحيد التي يحاط بأنظار متوثبة الأنقضاض على الفريسة، ولكن لا أسماء غيري، دُرج اسمي للمرّة الأخيرة وأخذوني معصب العينين في حوض سيارة دفع رباعي بيك آب. كانت التهمة الوحيدة التي رددها شهود العيان الذين لم أتعرّف على وجوههم ولكن بحكم عملي في المحل كنت أعرفهم واحدا واحدا من الأصوات هو قسمهم بأغلظ الأيمان بأن سيطرتي على السوق نتيجة تحالفي مع الحشد الشعبي وقبلها مع الصحوات، أنهم من نفس المهنة الذي نمتهنه ونعيش في منطقة واحدة وتربطنا علاقة صداقة على مدى ربع قرن قلت في نفسي :

ماذا دهى هؤلاء الناس في هذا التمادي، ما الذي يجنوه لو تخلصوا مني إلى الأبد؟ كم يريد أحدهم أن يعيش في هذه الدنيا الفانية، ألم يفكروا أن الله أقرب من حبل الوريد وإن الحياة لا تدوم لأحد؟ ....

أستغرب قاضي الحسبة بعد أن أمر بغرامتي وجلدي أمام الملأ بعشر جلدات لكوني أعرض عليهم للمرة الأولى من طلب المشتكين

باستئناف القرار من أجل أن تحال القضية لقاضٍ آخر الذي طلب شرطا غير مألوفا وهو أن يحضر الأمير أثناء المرافعة، بينما أنا لم أكن مستريحا في قفص الاتهام كانت كل أعضائي تئن من الممارسات الوحشية التي طالت كل مواقع الجسد بدون استثناء ..عصيٌّ عليَّ أن أقف ولو لبرهة ومع ذلك لم (يمهلني) سحب أنفاسي وأستريح، كل مرَّة يزجرني ويطلب مني الوقوف، وبهذه الأثناء دخل الشهود وهذه المرَّة كانوا متورطين بتهمة التواطؤ مع الحشد بدلالة الفيديوهات المنتشرة في التواصل الاجتماعي التي كانت تعرض صورهم، وعندما نفيتُ معرفتي بذلك عنهم صادروا كل ما أملك وحقنوني بإبرة وأطلقوا سراحي، قلت بعدها سوف أوصيك ياولدي هيثم أن تنشر مذكراتي في الوقت المناسب ولا تغفل بأني كنت أحب وطني .

المحتويات

أبو مدين الصحراوي ١
العمود رقم ٨..... ٨
أطلال المكتبة ١٤
سرقة الأعضاء البشرية ٢١
مارواه الشيخ عن مَرسى علي ٢٨
قرية باجوان ٣٣
أصحاب الثغور..... ٣٩
الإسحاقي ٤٤
آمرلي ٤٩
السيافية ٥٤
سبايا ٥٩
أرض الكنيسة ٦٦
لا غفران للزور ٧٢
رهينة ٧٨
يوم الخندق ٨٥
رقص الثعابين ٩١
ذكريات الأب مريوش ٩٧